

الفصل التاسع

التربية المسيحية في قرونها الأولى

« يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون » .

وكانت النهاية التي دبرت ليسوع في غدر وطيش ... وهوذا يقبل ومعه قلة من الجنود تابعين لرؤساء الكهنة والفريسيين .. ونفر عديد ممن عميت قلوبهم يحملون سيوفاً وعصيماً ... جمع غفير ليضع يده على من نادى بالإخاء والمحبة في وقت طغت فيه المادة ...

وأخذوا أسيرهم إلى قيافا رئيس الكهنة .. ومحاكمة سريعة أكد فيها الأسير موقفه وصلابته ، وصاح الجمع « إنه مستوجب الموت » . ثم استجوبه بيلاطس وسأل هذا الجمع « ماذا أفعل بملك اليهود ؟ » وصرخ القوم قائلين « اصلبه .. اصلبه » (١) .

وقد أوصى السيد المسيح تلاميذه أن يكونوا خلفاء له في بث مبادئه ودعوة الناس إلى طاعته والولاء له .. ثم إن « الجماعة المسيحية في أورشليم تكاثرت حددها سريعاً ، وانضم تحت لوائها جمع غفير من اليهود الذين كانوا في الشتات من قبل ومن مواطني الجليل واليهودية ، ومن كهنة العبرانيين أنفسهم . وكانت تلك لجماعة في أورشليم نواة الكنيسة المسيحية التي قدر لها فيما بعد أن تكون دوحة كبيرة تمتد أطرافها إلى كل أنحاء المعمورة » (٢) .

الاطار الزماني والمكاني

روما تمتد سلطانها ويرفرف نسرها على رقعة واسعة من الأرض امتدت من نهر الرين إلى شرق أوروبا ، إلى الفرات وإلى النيل ، ودانت لها أرض

(١) زكي شنودة : موسوعة تاريخ الأقباط - الجزء الأول ، ص : ٥٨ - ٥٩ .

(٢) حبيب سميد : عشرون قرناً في موكب التاريخ ، ص : ١ .

شمال أفريقيا ، وسار جنودها غزاة قساة على طرقات معبدة كلها توصل إلى روما . وعلى طرق الغزوات التجارية ، وصبت الشعوب المحكومة قمحها وذهبها في مخازن روما ، وجاءها النفيس من أقاصى الأرض تزين به الرومانيات حيث سالت أنهار الخمر في وديان المحون الواسعة . روما الطاغية بقياصرتها وفسقها .. وبشر يصارعون الأسود ، ويصبح المتفرجون عندما تنفجر ينابيع الدم من أجساد المصارعين .. وأكاليل الغار .. وطرق مفروشة بالورود ، وحسناوات فانتات في انتظار قواد المعارك من ضموا للإمبراطورية رقعة جديدة أو أخذوا فنتة .

روما الوثنية ولها آلة حرية جبارة ، ولكنها ركعت للثقافة اليونانية وأسلمت لها القيادة ، فسادت حيث حكمت العقل في كل حقائق الحياة ، وحيث افتنتت بالجمال والفن ، وجالت جولات خالدة في الفلسفة ، وناقشت علاقة الفرد بالدولة ، والسياسة وأصول الحكم ، ولهذا صارت في روما ثقافة فريدة جمعت بين حكمة الاغريق وتفكيرهم الحر ووسائلهم في الإقناع والاقناع ، وبين إنجازات الرومان في المعمار وشق الطرق والبراعة السياسية والإدارة الحازمة .

« ولكن تلك الثروات المادية عند الرومان ، والثقافة الذهنية عند اليونان قد أعوزها الخير الأسمى لأن انحلالاً روحياً كان قد انساب إلى أنفوس البشر . ذلك لأن الآلهة القديمة قد نزلت من فوق عروشها ، وخلت هياكل جوبيتر وأبولو من ذلك الأيمان الساذج الذي اعتصم به القوم يوماً ، كذلك خلعت السماء لأولمبية من آلهتها التي حفلت بها قديماً في أشكال من الجمال المثالى الرائع ، وأوضاع من القوة الحارقة . وأمست مجرد صور تنغى بها الخيالات الشعرية ، ورغب العالم المثقف عن آلهة هوميروس ، واستورد آلهة من الخارج مثل أوزيس وأوزيريس وعبادة الفرس » (١) .

وقد ظل سواد الشعب مؤمناً بعباداته القديمة بما فيها من آلهة عديدة ، لكل

شىء ولكل مناسبة ، بل إن أباطرة روما عملوا على تحويل هذه العبادات القديمة إلى عبادة الامبراطور نفسه ... وصارت تفد إليه أو إلى تماثله جموع البشر يقبلون الأرض ويقدمون القرابين . وصار كهنة رسميون ، هم موظفون في قطاع الدولة ويتقبلون المنح والعطايا ... والشعب في سذاجته يقدم أو في خوفه يعطى أو في عجزه يسترضى الإله .

وإلى جانب هذا العالم الوثني كانت اليهودية قد استقرت في كثير من أرجاء الإمبراطورية الرومانية ، ومن بعض اليهود وخاصة جماعة الفريسيين نجد أكثر أتباع المسيح الأولين . ولعل أهم شخصية يهودية هو فيلو الإسكندري .. الذى اعتقد أن الكتاب المقدس أحكم الكتب جميعاً ووحى إلهى صادق ، وأن موسى أكبر الحكماء والمعلمين إطلاقاً ، ولكنه بطريق الاجتهاد والتأويل والتخريخ وفق بين آراء الكتاب المقدس وبين أفضل الآراء والمذاهب في الأفلاطونية والرواقية . وكان لهذا المزج والتوفيق أعمق الأثر فيما بعد في نشوء الاصطلاحات اللاهوتية المسيحية ، وفي دراسة الكتاب المقدس (١) .

التربية المسيحية :

أخذت التربية المسيحية أشكالها المحددة في العصور الوسطى حوالى القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر . وقد ظهرت في جانبها النظرى على يد القديس أوجستين وتلاميذه ، وكذلك على أيدي الكثيرين من جهابذة المسيحيين الذين شكلوا أنماط وطرائق المدرسة المسيحية وخاصة نظام القديس توماس الأكويني .

والواضح أنه في الزمن السابق للقديس أوجستين (وقت سيادة الامراصورية الرومانية ثم سقوطها) عرف اهتمام الكنيسة بالاختلافات في الرأى حول شخص السيد المسيح ، وحول الخطيئة والخلاص ، وغيرهما من المسائل الدينية على أن فضلاً لا يمكن إغفاله في هذا الوقت المبكر للمسيحية ، ذلك أن تعاليم المسيح المشحونة بالأخلاقيات وخاصة عن المساواة بين الناس فتحت أبواب

(١) نفس المرجع السابق ، ص : ل .

التعليم أمام كل طفل مسيحي بغض النظر عن كيانه الاجتماعي ومستواه الاقتصادي وجنسه وسلالته .

وقد عاشت المدارس المسيحية الخاصة جنباً إلى جنب مع المدارس الرومانية والإغريقية ، ولكن الغلبة لم تكن في صالح المسيحية ، فقد كان السواد الأعظم من الناس لامسيحيين . بل إن التربية المسيحية والديانة التي هدفت إلى خدمتها وفتت معارضة للخلق الروماني والإغريقي ومثلتهما الاجتماعية ، حيث اهتمت المثل الإغريقية والرومانية بالتعبير عن الذات وبتأكيد الحياة الدنيا . . وكان اهتمامها مؤسساً على (الإنسانية الطبيعية) في إيمان بالقوى الطبيعية للإنسان مما تشتمل عليه من إحساس بالعدالة والواجبات الدنيوية ، والشجاعة الظاهرة في السلوك الإيجابي ، والتعجب بمباهج الحياة الدنيوية دون إفراط ، وتمجيد أكاليل الشرف والغار لمن يؤدون خدمات عامة ، والحق ، والولاء للدولة والبيت .

ارتكزت وتأسست دعائم المسيحية على قوى عليا وإيمان بمقدسات الجوانب الروحية عند الإنسان كالشجاعة في تحمل الشر والصعاب ، والتواضع ، والصمت ورد الشر بصنع الخير ، والتخلي عن زخرف الدنيا ومتاعها ، والعظمة في خدمة الآخرين ، وحب الجار . . بل وكل البشر .

ويهمنا أن نشير هنا إلى أن الديانة المسيحية قدمت للبشرية مفهوماً كريماً عن الفرد ، ولم يكن لهذا المفهوم أثر عاجل في الشؤون السياسية والتربوية ، ولكنه بدأ يؤثر تدريجياً في القرون التالية لدعوة السيد المسيح . اختلفت النظرة في المفهوم المسيحي عنها عند الإغريق والرومان ، فالديموقراطية الإغريقية كانت للأحرار والقانون الروماني فرق بين السادة والعبيد . ولذلك فقد كانت دعوة جريئة المناداة بقيمة كل فرد بغض النظر عن قوميته وجنسه ومكانته الاجتماعية وكونه رجلاً أو امرأة . واختلفت المسيحية بذلك عن اليهودية ، وإذا كان اليهود قد أصروا على التربية للجميع فانما كانوا يقصدون

جميع اليهود ، وإذا أصروا على أن يعرف كل فرد القانون فقد عنوا اليهود في مجموعهم لأنهم يرونهم شعب الله المختار .

وثمة فرق آخر مرتبط بالعدالة . العدالة بالنسبة للإنسان وضعت عند الإغريق والرومان على أسس مدنية . أى وضعها الإنسان ذاته ، أما المسيحية فالعدالة ذات أصل ديني ولذلك لم تؤثر المسيحية على السياسة وبالتالي على التربية وانفصل الدين عن السياسة .

ويلوح أن معظم اهتمام المسيحية في أطوارها الأولى كان متجهاً لإصلاح المجتمع الوثني المحتل الفاسد ، فقد هاجمت بشدة احتفالات المصارعة التي تسبح في بحار من الدم ، كما عملت على تقييد السلاق وعلى منع عادة وأد الأطفال . ويمكن أن نقارن بين المسيحية والوثنية في أن الأولى ارتضت التضحية وارتضت الثانية الشهوة ، كما أكدت الأولى العواطف الإنسانية بينما حبذت الثانية القسوة وانفظاظة ، وإحسان وكرم في المسيحية وتقدير وبخل في الوثنية . ويذكر المؤرخون أن القرون الثلاث الأولى في تاريخ المسيحية عرفت طهارة وقناعة ، ويرون أن صفحة المسيحية البيضاء هي التي يسرت تغلبها على أخياة الرومانية بفسادها ودينسها . ويطلق على العصور الأولى للمسيحية « عصور التهذيب المدرسى » إذ أقبل الناس على هذه الحياة النظيفة لا يبتغون من ورأها جاهاً أو منفعة أو نفوذاً أو شرفاً ، ولكنهم ارتضوها عن إيمان عميق واقتناع صادق .

وقد حاولت الديانة المسيحية الجمع بين القدسية المسيحية والكمال البشرى وكان هذا الكمال البشرى محتلاً قلب طريقة الحياة المسيحية . وقد أثرت فكرة الكمال هذه ، بل هيمنت على التربية المسيحية في قرونها الأولى ، كما كان لها شأن كبير على التربية الديرية فيما بعد ، لهذا فان القرون الأولى اتسمت بالاهتمام بالجانب الأخلاقي ، فرجل الدين هو المعلم ، أما المحتوى فهو الكتاب المقدس بالجانب الأخلاقي ، فرجل الدين هو المعلم ، أما المحتوى فهو الكتاب المقدس

مع تعاليم ومثاليات المسيحية . وقد هدفت هذه التربية لا إلى نمو عقلى أو اجتماعى وإنما إلى نمو خلقى روحانى

إلى ذلك الوقت فى تاريخ البشرية ، وبالحد الذى تمدنا به معلوماتنا التاريخية عما دار فى العالم حتى بدأت المسيحية تنتشر ، يمكننا القول بأن أعظم المعلمين مثل كونفوشيوس وبوذا وسقراط والمسيح كانوا ذوى اعتناق عميق . وما اعتنقوه لم يرتكز فقط على مجرد الإلمام بالمعرفة والقيم ، ولكنه تجاوز هذا إلى الوعى الشخصى بمعنى حياة البشر وعلاقتها بالبيئة فى أرحب وأوسع معانيها إن القارئ والدارس لحياة السيد المسيح يلمس بجلاء إيمانه العميق بأخوة البشر والمساواة بينهم . إيمان جسدهته. وضخمته خبرته الهائلة بالبشر ومشاكل الحياة .

عندما نتكلم - فى مثل هذا الكتاب - عن المعلمين العظام نسلط الأضواء على ما امتازوا به من عبقرية التعليم ، ومهارتهم المدهشة فى تبسيط أعقد الأفكار والمذاهب - وقدراتهم الهائلة فى توصيل معتقداتهم إلى سامعيهم . إذ تؤمن وتبسط وتوصل ، وتنجح فى هذا فانك تبني صرحاً ضخماً من العقول والنفوس . ولكن هذا أمر جد عسير ، بل إن صعوبته البالغة فى أول الثلاثة وهو الإيمان ، ولو نجح فرد ما ، كما فعل نفر قليل جداً ، وحقق تلك العمليات الثلاثة فإن النتيجة يمكن تلخيصها فى بساطة - أرجو ألا تطيح أو تمس جلالها وروعها - فى الآتى :

- تتكون معان عند التلاميذ .
- يثار تفكيرهم .
- يقوى ويزداد حب استطلاعهم .
- تنبلج الابتكارية .. وغيرها من الامنيات الغريزات التى يسعى إليها كل مرب محلىص لمهنته .

وكان المسيح معلماً عظيماً فى إيمانه وتبسيطه وتوصيله .
إن الدارس لحياة السيد المسيح سوف يجد أنه لم ينبع طريقه سبينة دائماً

في تعليمه ، ولم يخطط خطة واحدة اتبعتها ، ولكنه كان دائماً يتطلع إلى اللحظة أو الفرصة المناسبة ويستغلها في براعة ، متظراً انبثاق المشاكل ثم يعالجها بحكمة وحصافة . ويروى عنه أنه كان - دائماً - يبدأ تعليمه بما يشغل أذهان سامعيه كالفقانون الموسوي ، والحكومة الرومانية ، والإحسان ، والضرائب ، والوصايا العشر ، والملكوت ، والعالم الدنيوي والعالم الآخر .

كان يأخذ الشك ويصل منه إلى اليقين ، كان يصل من الأثرة إلى الغيرية ، كان يحول العداوة إلى محبة وتواضع .. « من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك ، فاترك له الرداء أيضاً . ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين . من سألك فأعطه . من أراد أن يقرض منك فلا ترده . سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم أحيوا أعداءكم . باركوا لاعينكم . أحسنوا إلى مبغضيك . وصلوا لأجل الذين يبشرون إليكم ويطردونكم » . ثم :

وكان في رده مفحماً خصومه حتى يخرسهم ... عندما أحضروا للمعلم امرأة شوهدت وهي تزني ، وسألوه ماذا يقول ... فقال : « من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر » وخرج الحاضرون الواحد تلو الآخر .

وقد حسم - ذات مرة - موضوعاً صعباً ، جاءه الفريسيون وقالوا له ليصطادوه بكلمة : « يا معلم قل لنا ، أيجوز أن نعطي جزية ليقصر أم لا ؟ » وعلم يسوع خبثهم وقال « لماذا تجربونني يا مراؤون ؟ أروني معاملة الجزية » فقدموا ديناراً ، فقال لهم : « لمن هذه الصورة والكتابة ؟ » قالوا له : لقيصر ، فقال لهم : « أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .

ويرى ماخوستين (١) أن عظمة المسيح كعلم تكمن في المرونة التي استخدم بها طرائق التدريس والتعليم . ولعل من الخير عرض بعض الصفات المميزة لهذه الطرائق في عمومياتها ، منها تأكده مما يقول ، والأصالة في أقواله ،

Makosteen, M. : The History and Philosophy of Education, (١) p. 135.

والتلقائية التي يتميز بها موقفه ، والبساطة وعدم التعقيد والألفة التي يتحدث بها إلى سامعيه والمباشرة في أقواله ، والاختصار المؤدى إلى الإفادة ، وتحركة من المحسوس إلى المعقول . ومن المعروف إلى غير المألوف والمحجول ، من الماضي إلى الحاضر ، ومن الحاضر إلى المستقبل ، حبه العظيم لمستمعيه ، تبصره في دوافعهم ، وفوق كل هذا تحرره من الخوف في قوله ما يؤمن به ، ورفضه المستمر لعقد المساومات للابتعاد قيد أتملة عما آمن به .. وخاصة فيما علمه عن الثراء والغنى ، وعن السلوك الديني ، وعن النساء ، والأطفال ، وعن هدف الحياة .

وقد استخدم المسيح وسائل عدة لنشر تعاليمه على مستمعيه ، منها : الأمثلة والحكايات الرمزية ذات المغزى الأخلاقي . وكانت مشتقة من واقع الخبرة اليومية حتى يكون الأشخاص أو تكون الأشياء مألوفة للسامعين . وفي العهد الجديد بين ست وأربعين وثلاث وخمسين قصة أو أمثلة (الفرق العددى يتوقف على مدى تحديد المقصود بالمثل والحكاية الرمزية) .

ومن الوسائل أيضاً الحكم والأمثال ، وفي العهد القديم الكثير منها . وقد شاع استخدام الحكم والأمثال في الشرق الأوسط منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا بين مختلف الأفراد وعلى كافة المستويات التعليمية . وتستخدم الأمثال والحكم بغزارة ، إذ أنها وسيلة سريعة ومفيدة لتوصيل مفهوم صعب إلى السامعين . وفي أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا العديد من هذه الأمثال والحكم .

واستخدم السيد المسيح من الوسائل الاستعارات والرمزيات والكنيات وخاصة عندما تكون الرسالة التي يريد إيصالها ذات عمق روحي شديد ، ويذكر في هذا المضمار ما دار في العشاء الأخير .. فلما اتكأ مع تلاميذه قال لهم : « شهوة اشبهت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن تأثم » ثم أخذ الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ ، وقال « خذوا ، كلوا هذا هو جسدي » وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً : « أشربوا منها كلكم . لأن هذا هو دمي الذي

للعهد الجديد الذى يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا .

ومن الوسائل أيضاً ما يمكن أن نسميه بالأساطير وإن كان المسيح لم يستخدم هذا الأسلوب إلا لماماً لما يعتره من اختلافات في التفسير ، والأساطير معروفة منذ القدم فقد شاعت بين الصينيين والهنود ، كما أن أسطورة الكهف لأفلاطون ذاتة الصيت .. وقد حاول فيها - أو عن طريقها - التمييز بين المعرفة الحسية والمعرفة الإلهامية ، بين العالم المنظور المرئى والعالم الحقيقى . والغرض من استخدام الأساطير تبسيط مدرئك صعب عميق إلى أساسياته وأصوله في لغة رمزية يسهل على السامع أو القارئ فهمه .

وكما استخدم سقراط طريقة الحوار للكشف عن المغالطات والأخطاء ، ولدراسة الموضوع من جميع جوانبه ، ولكى يتعلم الفرد بوعيه الداخلى الذى يتأتى بعد فحصه ودراسته المباشرة . كذلك استخدمت هذه الطريقة في مدارس تعليم المسيحية وقد استمر استخدام الحوار في العصور الوسطى ، وإن كان يؤخذ على هذه الطريقة أن النتائج ونهاية الحوار معدة سابقاً ، ولا يمكن تغييرها . وقد استخدم المسيح الحوار ، ولكن في غير كثرة ، ولم يقصد منه طرح مناظرة بينه وبين السامعين ، ولكنه هدف إلى نقل حقائق معينة عن طريق أسئلة يوجهها ، ثم يجيب عنها .

وقد نجح السيد المسيح في استخدام طريقة المناقشة ، وغالباً ما دارت المناقشات في جو غير شكلى ، وفي إطار من الألفة والود ومشبع بروح التقبل لدى السامعين في لحظة هادئة واتجاه إيجابى للاستماع . وقد دارت مناقشات على ربوة تل ، أو على شاطئ مجرى ماء ، أو تحت شجرة ظليلة ، أو في أحد المنازل . وفي بعض هذه المناقشات عولجت مسائل سبق ذكرها في أساليب شكلى في مجتمع كبير استمع إلى المعلم . وما أشبهها بحلقات المناقشة بعد الاستماع لمحاضرة عامة - في شكلها الظاهرى .

على أن الغالبية من تعاليم المسيح أُلقيت على صورة المحاضرات العامة على

سفع الجبل حيث اجتمع خلق غفير ، بعضهم فهم كل ما قيل وبعضهم وعى القليل ، ولكن ثمة فائدة نالت كل مستمع .

هذا ، وقد عرفت المسيحية في هذه العصور أنواعاً مختلفة من المدارس :

١ - مدارس تعليم المبادئ المسيحية : وكانت تتخذ الكنائس مقرأ لها ، وكان ينضم إلى هذه المدارس أبناء المسيحيين والراشدين من اليهود والوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية (١) . وكان التهذيب في هذه المدارس تهذيباً عقلياً وخلقياً مع اهتمام واضح بالموسيقى ، فقد انتشر التريل بالزامير ترتيلاً موسيقياً وخاصة في الشرق منذ سنوات المسيحية الأولى .

٢ - مدارس الحوار الديني : وهي مدارس أرقى من المدارس السابقة ، وكان لابد لتساوسة المسيحيين وزعماء الكنيسة من الإلمام بالنتاج العقل اليوناني حتى يستطيعوا النقاش مع مدارس الفكر اليونانية . ولعبت الإسكندرية دوراً بالغ الأهمية على يد الفيلسوف (باندينوس) الذي خرج على تعاليم الرواقين واعتنق المسيحية وأصبح رئيساً لمدرسة الإسكندرية حيث وضع الفلسفة والخطابة في خدمة الكنيسة . ثم تبعه كلمنت وأورجان ، وعلى يدهما تشكلت تعاليم المسيحية الأولى .

ونشأت مدارس الكاتدرائية متبعة نظام المدارس الحوارية ، ولكن بعد أن تحدد نظامها وأصبحت مراكز يدرس فيها رجال الدين ، بل كانت تتوقف ترقياتهم في وظائفهم على ما يدرسونه في هذه المدارس . ومع نمو المسيحية في أوروبا نمت الهيئات الكنسية وازدادت الحاجة لرجال الدين ، وبالتالي اتسعت هذه المدارس وتوطدت مكانتها بعد أن سقطت ألوية الوثنيين وإعلان المسيحية ديناً رسمياً في روما .

(١) مفرد المرجع الايق ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

مدخل

ترك العصور القديمة مع مسيرة التاريخ الطويلة ..
وقد انتشرت المسيحية مع مرور السنين واضعة نهاية للكثير من العبادات
الوثنية وخاصة في أوروبا .. غير أن إنتاج العقل البشري لم يكن نشطاً ، وكأنا
أتمخمة الجرعات الدسمة من فلاسفة الإغريق وجامعة الإسكندرية والمراكز
العلمية بالشرق الأوسط .

ودق التاريخ أبواب العصور الوسطى . ولعل أول من استخدم تعبير
(العصور الوسطى) هم المؤرخون في القرن السابع عشر ؛ ليعبروا عن فترة
في عمر البشرية تمتد من سقوط الإمبراطورية الرومانية عام ٤٧٦ إلى حوالي
١٥٠٠ ميلادية حيث بدأت حركة النهضة الأوروبية . وفي رأى بعض المؤرخين
أن العصور الوسطى بدأت عندما أغلق الامبراطور جستنيان أكاديميات آثينا
عام ٥٢٩ م. ويرى البعض أن نهاية العصور الوسطى حصلت باكتشاف أمريكا
عام ١٤٩٢ م.

هي فترة طويلة وفيها اختلفت الآراء حول بدايتها ونهايتها -عرفت
البشرية فيها يقظة ووعياً في الشرق الأوسط ، وسباتاً أحياناً ، وشبه صحوة
أحياناً أخرى في أوروبا .

في هذه الفترة انبجج نور الإسلام وغمر الأرض شرقاً وغرباً ، وأقام
صرحاً ثقافياً عملاقاً ، بل كان المنادى بصوت عال أيقظ العالم الغربي الذي
تلفت حوالبه باحثاً عن الزاد الفكري والعلمي يسد به جوعاً أضناه مئات
السنين ، فوجد مائدة إسلامية تزخر بطيب الثمر من الطب والكيمياء والفيزياء،
والفلسفة والأدب والرياضة .. الخ .

وأقامت أوروبا جامعات كانت ركيزتها ما خلفه المسلمون الذين أخذوا
من علم وفلسفة الإغريق والفرس والهنود والمصريين ... وأضافوا إليها بعد
تطويرها وتحسينها حتى تلقفها الأوروبيون .. وكانت النهضة ثم التقدم السريع
في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ثم قفزة في النصف الأول من القرن
العشرين ، ثم الانطلاقة الهائلة في المجتمع الغربي في النصف الثاني من هذا القرن

الفصل العاشر

التربية الإسلامية

من واد غير ذى زرع بدأ الإسلام يغمر الكون هادياً العالمين . والصحراء أرض حل وترحال وتجوؤها قبائل بدوية ، والبعض يستقر حيث تصح الحياة وجبال ووديان ورمال صفراء وكثبان وخيام وجمال وسماء قلما عرفت السحب . وكثيراً ما أريقت الدماء على الرمال ، فالقبائل تتناحر ، وتتفاخر بالأنساب ، وتمدح وتهجو . .

وفي غمار التقاليد الجامدة المتينة عاش سكان شبه الجزيرة العربية ، وكانت ذخيرتهم العقلية ما يتوارثونه جيلاً بعد جيل ، ويقول دي بور De Bocr (١) ولم تكن عندهم الثمرات التي يتوصل إليها بالاجتهاد والتضامن الاجتماعي ، ولا الآثار الفنية الجميلة التي يوتئها الفراغ والترف ، ولم يصلوا في التمدن إلى مرتبة أعلى من ذلك إلا بأطراف تلك الصحراء ، في دول تكونت بعض الشيء ، كثيراً ما كانت تتعرض لغارات يشنها البدو .. وهكذا كانت الحال في الجنوب حيث امتد الأجل بدولة ملوك سبأ القديمة إلى العصر المسيحي ، وتمت سيادة الأحباش أو الفرس .

وفي الغرب كنت تقع مكة والمدينة (يثرب) على طريق تجارى قديم ، وكانت مكة بوجه خاص - نظراً لوقوعها ولوقوعها في كنف البيت الحرام - مركزاً لحركة تجارية قوية . أما في الشمال فقد نشأت مملكتان من العرب كانت لهما بعض السيادة ، هما : مملكة اللخميين في الحيرة ، على تخوم الفرس ، ومملكة الغساسنة في الشام على تخوم الروم .

حقاً لم تكون شبه الجزيرة وحدة سياسية ، ولكن كانت هناك وحدة اللغة

(١) دي بور (ترجمة محمد عبد الهادي أبوريدة) تاريخ الفلاسفة في الإسلام ، ص ٣ - ٤

والاهتمام بالشعر وقوافيه وأوزانه ، حتى إن العرب أنزلوا الشعراء بينهم منزلة حسنة . وقد تخيرت القبائل أرجح رجالها عقلاً وأعلى حكمة ليكونوا شيوخاً فيها يحكمون بين الناس . وتراپطت القبائل فيما بينها بروابط التجارة والأسواق الأدبية ، حتى إنه يقال إن قصائد اشعراء الساحرة كانت تنزل في أول الأمر منزلة وحى الكهان . ثم كانت القبائل ترفع السيوف بعد سلام سعيأ وراء خير أوردأ لإهانة .

ثم جاء الإسلام ، ونزلت أول آية على محمد بن عبد الله وهو يتعبد في غار حراء : « إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . ثم بدأ الإسلام ينتشر في ربوع شبه الجزيرة ، وتحمل عليه السلام وصحابه الأذى والألم حتى كتب الله لهم نصراً مبيناً .

واستطاع النبي (صلى الله عليه وسلم) ومن بعده الخلفاء الراشدون .. « أن يعيشوا في نفوس أبناء الصحراء الأحرار ، وفي نفوس من هم أكثر منهم تحضراً من أهل البلاد الواقعة في الأطراف روح الاتحاد في العمل ، وإلى هذا البعث يرجع الفضل في المكانة التي يتبوؤها الإسلام كدين عالمي . ولقد صدق الله المسلمين وعده بالنصر ، وكأتما كان تأييده لهم إجابة لندائهم عند لقاء الأعداء : « الله أكبر » .. تم فتح العرب بلاد فارس كلها ، وانتزعوا من الإمبراطورية الرومانية الشرقية أحسن ولايتين فيها ؛ وهما : الشام ومصر ،

وخلف النبي عليه السلام الخلفاء الراشدون (١١ - ٤٠ هـ - ٦٣٢-٦٦١م)
أبه بكر وعمر وعثمان وعلي . ثم غلب على ، وفاز معاوية بن أبيه سفيان وإلى الشام على ولدى على بن أبي طالب . وفرت فلولهما باذرة بذور حزب الشيعة .
وأسس معاوية الدولة الأموية متخذاً عاصمته دمشق (٤٠ - ١٣٢ هـ -
٦٦١ - ٧٥٠ م) . وإبان حكم الأمويين رفرفت ألوية المسلمين على رقعة من الأرض تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى ما وراء حدود الهند والتركستان

شرقاً ، ثم إلى بلاد القوقاز وأسوار القسطنطينية شمالاً .. وسادت اللغة العربية فأصبحت لغة الدين والدولة والشعر والعلم . وأصبح تولى المناصب العليا من حق العرب ؛ فهم يديرون الدولة ويتولون قيادات الجيش ، أما حملة العلم والفن فكان غالبيتهم من غير العرب . وإبان الدولة الأموية ازدهرت البصرة والكوفة كركنين للثقافة حيث كان يلتقى فيها عرب وفرس ونصارى ومسلمون ويهود ومجوس . ولعل هذه اللقاءات بين أقوام من شعوب مختلفة ولغات متعددة وثقافات متنوعة كانت بداية لعصر من التقدم العلمى فى وقت كانت فيه أوروبا تغط فى نوم من الجهالة يزداد عمقاً سنة بعد أخرى .

وخافت دولة بنى أمية الدولة العباسية (١٣٢ - ٦٥٦ هـ - ٧٥٠ م) ، وأطلق على فترات منها بالعصور الذهبية . وقد بنى المنصور ثانياً خلفاء العباسيين ، بغداد عام ١٤٥ هـ - ٧٦٢ م ، وخلفه هارون الرشيد ثم المأمون ... وتألفت بغداد وأصبحت كعبة العلم والفن والأدب ، وصبت فيها أنهار من الذهب من أرجاء الإمبراطورية المترامية ، ولم يبخل الخلفاء على النهضة العلمية فقدموا للبشرية ما حقق لها التقدم إلى الأمام مستغلة التراث القديم ، ومجددة ومبتكرة ومهيئة للمستقبل .

ثم بدأ الوهن يتطرق إلى الدولة المتماسكة ، فاستقلت بعض أجزائها ، فكانت هناك دولة بنى أمية فى الأندلس ، ودولنا الطولونيون والفاطميين فى مصر ، وأقام بنو حمدان ملكاً فى الشام والجزيرة ، كما قام الظاهريون فى المشرق . وبدأت مدن أخرى تشع الثقافة ، ففي الأندلس قامت مراكز علمية ، وفى القاهرة أنشئت جامعة باقية إلى اليوم : الأزهر .

التربية والتعليم

عاش العرب فى الجاهلية خاضعين للخرافات والأوهام ، عبدوا الأصنام ووكأوا إلهها كل أورههم . كما لجأوا إلى الكهانة والعرافة لفض نزاعتاتهم . ويأوح أن القراءة لم تكن منتشرة فى بلاد العرب قبل ظهور الإسلام . ولذلك نجد القرآن الكريم قد حث الناس على القراءة وطلب العلم ، فقد نوه

في مواطن كثيرة بمنزلة العلماء الرفيعة وأهمية العلم وطلبه ، فيقول الله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وقال تعالى « وقل رب زدني علماً » . ومن أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » ، وقوله « اطلبوا العلم ولو في الصين » ، وقوله أيضاً « لا خير فيمن كان من أمتي ليس بعالم ولا متعلم » وقوله كذلك « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد » .

وقد خرج صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين : أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه ، وفي الثاني جماعة يعلمون الناس فقال : « أما هؤلاء فيسألون الله فان شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلماً » ، ثم عدل إليهم وجلس معهم . وكان رسول الله عليه السلام يشيد دواماً بفضل المعلمين ومنزلة العلماء ومكانة العلم فهو قوام الدنيا وقوام الدين حيث قال « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم » وقال أيضاً : « الناس رجلان : عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » . وقال : « فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب » . وقال عليه السلام : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » . وقال : « تعلموا العلم فان العلم لله حسنة ودرسته تسبيح والبحث عنه جهاد وطلبه عبادة وتعليمه صدقة وبذله لأهله قرابة » (١) .

كما أن الإسلام في حرصه على التعليم لم يفرق بين الأبناء والبنات ، قال النبي عليه الصلاة والسلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وروى أن الرسول عليه السلام كان يطلق سراح الأسير المتعلم من الكفار إذا علم عشرة من المسلمين الأميين القراءة والكتابة . ويذكر عن الرسول عليه السلام

(١) جمعها محمد عطيه الابراهيمى : التربية الاسلامية . ص ٣٦ - ٣٧ .

أنه حث بعض أصحابه على تعلم لغة إلى جانب العربية . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه تكميل : يا كميل العلم خير من المال : العلم يحرسك وأنت تحرس المال : والعلم حاكم والمال محكوم عليه . والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق » . وقال أيضاً : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد » .
ومن أقوال الحكماء : (٢)

إذا مات العالم بكاه خشوت في الماء والطير في الفواء ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره .

وقيل « كن عالماً أو متعلماً أو مستعلماً ولا تكن جاهلاً فذلك » .

وقيل : تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومذاق سنه تسبيح والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقه ، وبذله لأهله قرينة وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة والدليل على الدين والمصير على السراء والضراء ... والقريب عند الغرياء ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواداً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدله في الخير تقتصر آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلتهم . وبأجنتها تمسحهم لأن العلم حياة القلوب ونور الأبصار ، به يبلغ الإنسان منازل الأبرار وبه يطاع الله عز وجل وبه يعبد وبه يوعد وبه يوحد وبه يمجّد وبه توصل الأرحام ويلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء » .

وقال الأحنف : « كل عز لم يؤيد بعلم فإلى ذل يصير » .

وقال الزبير بن أبي بكر : « كتب لي أبي بالعراق : عليك بالعلم فانك إن افتقرت كان لك مالا ، وإن استغنيت كان لك جديلاً » .

وقال ابن الحكم : « كنت عند مالك أقرأ عليه العلم ، فدخل الظهر ،

(١) المرجع السابق وأحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية . ص ٢٨٧ . جمعت من مصادر منها : ابن عدي : ١ : ٢٦٥ - ابن قتيبة : عيون الاخبار ٤ : ١٢٠ - الاصفهاني : محاضرات الادباء ١ : ١٦٦ - الفزالي : الاحياء ١ : ٦ - ٧ - الادب الصغير ص ٢٢ من وسائل البلاغ .

فجمعت الكتب لأصلي فقال : يا هذا ما الذي قمت إليه بأفضل مما أنت فيه ،
وقيل لبعض الحكماء : « أي شيء تقتنى ؟ » قال : « الأشياء التي إذا
غررت سفينتك سبحت معك » . يعنى العلم .

وقال ابن المقفع : « العلم زين لصاحبه في الرخاء ومنجاة له في الشدة » .
وسئل عبد الله بن مبارك : « لو أن الله أوصى إليك : تموت العشيّة ،
ماذا تصنع اليوم ؟ » فقال : « أقوم وأطلب العلم » .

وإذا كان العلم والتعليم قد حظى في سني الإسلام المتقدمة بالمكانة الرفيعة
على يد النبي عليه السلام وصحابته وخلفائه ، فإنه قد وجد عند خلفاء الأمويين
والعباسيين استجابة لم تقتصر آثارها على المسلمين فحسب : بل كانت لها
أصداء عميقة الأثر في العالم فيما بعد .

على أن التعليم في هذا الوقت المبكر من تاريخ الإسلام قد اهتم قبل كل
شيء بالقرآن ثم بالقراءة والكتابة ، ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه
أرسل إلى ابنته من المسلمين قائلاً : « أما بعد فعملوا أولادكم السباحة
والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر » . وباتساع الأمصار
الإسلامية وانتشارها بدأت تباشر نهضة تعليمية دعامتها في بداية الأمر العلوم
الدينية مثل القرآن والتفسير ورواية الحديث ثم استنباط الأحكام الفكرية
والفتاوى الشرعية . ويغلب على الظن أن بداية الاهتمام بالعلوم العقلية أو
الكونية كالطب والفلسفة والرياضيات كان في عصر العباسيين ، فلم يعرف
عن الأمويين اهتمام بمثل هذه العلوم ، إذ يذكر ابن خلدون في مقدمته عن
أصناف العلوم التي كان المسلمون يتناولونها في مجالسهم العملية في صدر
الإسلام وزمن حكم بني أمية ، فيقول : إنهم اهتموا بالعلوم النقلية ، وهي
التي تتصل بالقرآن الكريم وهي التفسير والقراءات والحديث وأصول الفقه ،
كما اهتموا بالعلوم اللسانية كعلم اللغة وعلم النحو وعلم البيان والأدب .

ويلوح أن العلوم العقلية كانت قليلة أيام الأمويين ، وكانت العلوم النقلية
نواتها القرآن والحديث ، فمنها يستنبط الفقه ولأجلها يروى الشعر وتبحث

مسائل النحو . أما في العصر العباسي فقد وجدت نواة أخرى تجمعت حولها العلوم الدنيوية ، وهي نواة الطب .. « فقد أسس النساطرة ، بمعاونة اليهود مدرسة للطب بجنديسابور ، وأيدهم الخلفاء العباسيون ، وقد كانت هذه المدرسة الطبية واثرة الطب اليوناني والفلسفة اليونانية في الشرق ، وحول هذه الدراسة الطبية تكونت دراسة الطبيعة والكيمياء والهيئة ، بل والمنطق والإلهيات ، وكانت الثقافة الطبية تتطلب كل هذه الفروع ، وبرنامجهما يسع كل هذه الأشياء ، كما نلاحظ هذا حتى في فلاسفة المسلمين أمثال الفارابي وابن سينا ، فكلاهما طبيب فيلسوف .. من أجل هذا نرى نوعين من الدراسة في هذا العصر : دراسة دينية حول القرآن والحديث ، ودراسة دنيوية حول الطب ، ولكل نوع مميزات خاصة ومنهج في البحث خاص ، وإن أثر كل منهما في الآخر وتأثر به (١) .

ويعمل ابن خلدون ازدهار العلم في العصر العباسي بما تمتع به العباسيون من سعة في الدخل وترف أعطى الفرصة لاجودة والكثرة ، فبعد أن كفى القوم أنفسهم من الضروريات وما زال لديهم فائض من الرزق اتجهوا إلى التجديد والتحسين في صناعاتهم ، وإلى الإغداق على محبي العلم والعلماء . ولعل من أسباب التقدم العلمي في العصر العباسي عنه أيام الأمويين والخلفاء الراشدين - أن الدولة الإسلامية تمكن لها في الأرض استقرار متخذة بغداد عاصمة ، وهي متاخمة لبلاد فارس ذات الحضارة القديمة العتيقة . وقد نزع إليها وعاش فيها فرس شجعهم الخلفاء على العلم ، بل إن الولاة المسلمين في الأرض التي كانت مهداً للاحتلال الروماني لم يبخاوا على العلماء بمنحهم ، بل كان هؤلاء الحرية التي يعشقها محب العلم . وقيل إن ضعف معدة أبي جعفر المنصور جعله يهتم كثيراً بالطب والبحث فيه فاستدعى أطباء مختلفين في ملهم ونحلهم ، كما اهتم بالتنجيم لاعتقاده أن هناك صلة بين حركات النجوم وما يدور على الأرض (٢) .

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام - الجزء الثاني . ص ١١ - ١٢

(٢) المرجع السابق ص : ١٥

وقد أثر انتشار العلوم العقلية على المجتمع الإسلامي والتربية فيه من زاويتين
١ - طريقة البحث : فعلماء العلوم العقلية اعتمدوا على الرواية وصحة
السند ، فهم يجمعون ما قاله السابقون ، وقد يرجحون قولاً على قول ، ويكاد
يقتصر عملهم على التحقق من صحة النقل ، ولم يحكموا كثيراً بقياس العقل ،
بل كانوا لا يقبلون نقداً ولا يطبقون محاجة بالمنطق ، أما أصحاب العلوم العقلية
من دارسى الطب والرياضة والطبيعة فقد ركزوا إلى معقولية الحقائق وامتحانها .
متخذين إما سبيل المنطق وإما التجريب العملي . فهم يحكمون بالصواب أو
الخطأ بعد فحص وتمحيص لا استناداً على اسم القائل أو المصدر . ولعل
اختلاف طريقة البحث لم تقتصر على مجرد أسلوب الوصول إلى الحقيقة ، بل
تعدتها إلى عداوة بين التقليين والعقليين ، فالقليون - وأظهر من يمثلهم
علماء الحديث - يتهمون العقليين بالزندقة والإلحاد ؛ والعقليون - وأظهر
من يمثلهم علماء الكلام - يتهمون التقليين بالجمود والتزم .

٢ - مع اتساع العلوم العقلية في العصر العباسي وتشجيع الخلفاء للعلم
والمتعلمين لم يعد العلم قاصراً على الأمور التي احتكرها رجال الدين . فطرق
أبواب العلم - وخاصة في العلوم العقلية التي تكونت حول الطب - أفراد
كانت صلاتهم بالدين والتعمق فيه خفيفة . وجذبت هذه العلوم العقلية
الكثيرين الذين عملوا على التنقيب في أعماق الثقافات المختلفة والتمتع بكنوزها .
وكانت أسباب الاستقرار السياسي والرغد الاقتصادي مهينة لهم كل الفرص
الممكنة .

ومما هو جدير بالذكر أن اتساع صناعة الورق في ذلك الوقت كانت من
العوامل التي آزرت هذه النهضة العلمية (١) . فكان العرب قبل الإسلام وفي
صدره يكتبون على الرق ، وهو جلد جف ثم رق ، وفي اللخاف وهي حجارة
بيض رقاق وكذلك في عشب النخل ، وهو الجريد الذي لا خصوص عليه ، ويكتبون
أيضاً في عظم أكتاف الإبل والغنم ، كما استخدم العرب القرطاس وهو ورق
مصنوع من بردى مصر وانتشر في ربوع الدولة الإسلامية المترامية . كما نشأت

(١) الموجد السابق ص: ٢٠ - ٢١

صناعة « الوراقة » التي كان أصحابها يقومون بنسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها وقد ساعدت على انتشار الثقافة .

وإذا كانت المصادر التاريخية تحدثنا عن حرية عند العلماء ، فهي أيضاً تلقي أضواء كثيرة على اتجاهات القصور نحو توجيه بعض العاوم عقلية وعقلية . فقد أثرت الهيئات الحاكمة على العلم تأثيراً كبيراً ، ولعل الموقف انسياسى الداخلى كان يدفع الحكام إلى سلوك معين . فقد قامت الدولة العباسية على أبقاض دولة بنى أمية وكانت لها عظمة ليس من السهل إخلاء عقول الناس منها ، كما أن هناك الشيعة الذين يرون أن أحق الناس بالخلافة هم آل أبى طالب وأن آل العباس اغتصبوا الخلافة منهم . هذا إلى جانب مذاهب دينية فى الظاهر وسياسة فى الباطن كالحوارج والمرجئة .

ولهذا فقد تلون ندوين التاريخ بما يرضى السلطات الحاكمة ، كما اندفع الشعراء يبتغون رضا الخليفة بقصائد طويلة فى مدحها . حتى فى الفقه عمل بعض الفقهاء على التوسع فى الحيل الشرعية لإرضاء لمطالب الخلفاء . وفى النحو واللغة تدخل العباسيون أيضاً . فعندما احتدم النزاع بين البصريين وأنكوفين ، أخذ العباسيون جانب الكوفيين .

على أن بعض العلوم لم يكن لها اتصال بالسياسة ، فلم تتأثر بها كعلوم الطب والرياضة والمنطق والطبيعة . ولا يضع المتكلمون عن هذا العصر مبدأ ثابتاً يصح على كل الكتاب والشعراء والعلماء ، فاذا كان السواد الأكبر من الأدباء والشعراء قد أطنب فى مدح الخلفاء العباسيين وذب الأمويين ، فانه كان هناك أيضاً من ذم العباسيين فى وقتهم وهجأهم ، كما أبدى بعض مؤرخيهم المعاصرين آراءهم فى حرية وإن كانت لا تطابق هوى فى نفوس الخلفاء العباسيين . بل إن استعراضاً لكتاب « مقالات الإسلاميين » لأبى الحسن الأشعري ، وكتاب « الملل والنحل » للشهرستاني ، وكتاب « الفرق بن الفرق » للبغدادي ترينا آراء ومذاهب وأقوالا فى الإلهيات تسترعى الوقوف عندها لما فيها من جرأة فى آراء ومذاهب وأقوالا فى الإلهيات تسترعى الوقوف عندها لما فيها من جرأة فى الرأى . بل إن الحرية فى مزج فلسفة اليونان بالإسلام تسترعى الإعجاب لما

تتمتع به العلماء العقليون من حق في إبداء الرأي . ويذكر أن المعتزلة كانوا يتقدون في أحاديثهم وكتاباتهم أحداث التاريخ في صدر الإسلام نقداً مبرراً وصریحاً .

ومع ذلك فهناك شواهد تاريخية تثبت اضطهاد المخالفين في الرأي ، بل قتلهم ووزير الإموية قتل وغيلة ، وقد طورد العلماء من المعتزلة واضطهدوا وعذبوا ، مما يجعلنا لا نستطيع أن نعطي حكماً قاطعاً على مدى الحرية في الكلمة في العصر العباسي .

ويلخص الأستاذ أحمد أمين الموقف في نقطتين :

أولاً : إن الخلفاء العباسيين الأولين - وبخاصة المنصور - وضعوا أساساً للدولة أهمها تنظيم الخلافة في نفوس الناس ، وصيغ الخلافة صبغة دينية فيصبح الخليفة حامياً للدين وظل الله في أرضه ، وفي يده كل سلطة . ولهذا فلم يسمح الخلفاء بما يؤدي إلى إضعاف شأن الملك . ويذكر عن المنصور قوله : « الملوک تحتل كل شيء إلا ثلاث خلال : إفتاء السر ، والتعرض للحرم ، والتدح في الملك » .

ثانياً : إن حرية الرأي ومداهما كانت متصلة اتصالاً كبيراً بمزاج الخليفة ، فيذكر عن المنصور أنه كان يظن انظنون في كل ما يتصل بالملك والحكم ، ولكنه كان واسع الصدر في كل ما يتصل بالعلوم . ورأى بعض الخلفاء في العلوم العقلية زنادقة ؛ فحارب واضطهد المشتغلين بها مسلمين كانوا أو نصارى أو يهوداً ، وقربوا إليهم أهل الحديث كما فعل الخليفة المتوكل .

والذي لا شك فيه باجماع المؤرخين أن حركة الترجمة بلغت ذروتها في العصر العباسي ، كما أن التقدم العلمي سار بخطى سريعة ومطردة . وقد عمد بعض المؤرخين الغربيين أن يفضوا من قدر العرب وإنتاجهم في عالم الفكر ، فادعوا أن ما جاء به العرب لم يكن فيه شيء مبتكر ، ولم يكن العرب إلا مقلدين . وإذا سلمنا بأنه لا يكون ابتكار مخلوق من العدم فحرى بنا أن ننظر إلى مجهودات العرب نظرة عادلة. فلم يكتف العرب بنقل الفلسفة القديمة من

اليونانية إلى العربية فقط ، بل درسوا هذه الفلسفة وشرحوها . ثم هم أولئك الذين ثقفوا العالم الحديث بنتاج العالم القديم (١) . كما أنهم مزجوا بين الآراء اليونانية والآراء الهندية في الرياضيات ، وعلى أرضهم صار النقاش والكتابة عن الشرق وإنтаجه الفكرى والغرب وما قدمه للبشرية . وبفضل العرب عرف الأوروبيون ما خلفه الإغريق والهنود والصينيون . وفتحوا أمام التفكير لأوروبي آفاقاً جديدة ، وأيقظوا العقل الغربى لبدأ البحث ، وهزوه من نستسلامه الفكرى لبدأ يناقش أموراً لم يشك فيها ولا فى صحتها ، وكان من نتيجة اللقاح الفكرى على يد العرب أن بدأت المدنية سيرها الحثيث نحو التقدم .

ويتحمس الدكتور فروخ (٢) لعبقرية العرب وأسسها ؛ فيتكلم عن الحرية العلمية قائلاً : إنه بينما كان الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون يجادلون الخوارج والنصارى واليهود والصابئة والمجوس بالتى هى أحسن ، ويعقدون لهم المجالس للمناظرة ويدرون عليهم الأرزاق ، ويفتحون لهم أبواب معاهد العلم .. بينما كان هؤلاء يقفون هذا الموقف الذى يجسر على تبيان فضل العقل فى أوروبا يربط إلى سارية مركوزة فى نار متأججة ، أو تشد أطرافه الأربعة إلى أربعة جياذ ينال عليها الموكلون بها ضرباً بالسياط .

معاهد التعاليم :

يقسم الدكتور أحمد شلبي أمكنة التعليم فى التربية الإسلامية إلى حقتين : الأولى قبل انتشار المدارس ، والثانية بعد انتشارها . والحد الفاصل بينهما هو عام ٤٥٩ هـ وفيه افتتحت فى بغداد أول مدرسة من عديد من المدارس المنظمة التى أنشأها الوزير السلجوقى العظيم نظام الملك . فقبل انتشار المدارس تعلم المسلمون فى :

١ — الكتاب : وقد عرف فى بلاد العرب قبل ظهور الإسلام ، وكان

(١) عمر فروخ : عبقورية العرب فى العلم والفلسفة ، ص ١٥

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠

لتعليم القراءة والكتابة . ويروى أن عدد القرشيين الذين كانوا يقرأون ويكتبون عندما جاء الإسلام لم يتجاوز سبعة عشر رجلاً فقط . ويلوح أنه كان هناك نوعان من الكتاتيب ، نوع يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة ، وكان يقوم بالتعليم بعض الذميين أحياناً كثيرة ، ولم يجلس لتعلم القراءة والكتابة من المسلمين في صدر الإسلام إلا عدد قليل جداً . والنوع الثاني كان مكاناً يتعلم فيه صبية الكتاب القرآن الكريم والدين وأصبح يطلق على المكان الذي يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة ، أو القرآن والدين اسم « لكتاب » . على أن الظاهر من الشواهد التاريخية أن كتاتيب حفظ القرآن لم تظهر في العهد المبكر للإسلام ، فقد كان الأطفال يندسبون بين الكبار في مجالسهم وحلقاتهم بالمساجد ، وتلقى بعضهم القرآن من آبائهم وذويهم أو من مدرسين مخصوصين ولم تكن الكتاتيب في المساجد ، فقد نص على أنه : « لا يجوز تعليم الأطفال في المسجد لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتزيه المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات ، بل يتخذون للتعليم حوائيت في الدروب وأطراف السوق » . وقد لجأ بعض المدرسين - على الرغم من هذه التحذيرات - إلى اتخاذ زوايا من المساجد يعلمون بها . أو غرفاً ملحقة بالمساجد .

واختلف حجم الكتاب من حجرة واحدة إلى مكان متسع ، فيروى ياقوت في « معجم الأدباء » أن كتاب أبي قاسم البلخي كان به ٣٠٠٠ تلميذاً . وكان فسيحاً جداً يتسع لهذا العدد ، ولهذا احتاج البلخي أن يركب حماراً ليتردد بين هؤلاء وأولئك ويشرف على جميع تلاميذه (١) .

وقد ازداد عدد الكتاتيب في القرن الثاني الهجري حتى أصبح بكل قرية كتاب ويذكر ابن خلدون في مقدمته (٢) أن ما درسه الولدان اختلف من قطر إسلامي لقطر آخر ، ولكن يلوح أن الدراسة اشتملت على القرآن

(١) المرجع السابق ، ص : ٢٢

(٢) ابن خلدون : المقدمة . ص ٣٩٧ - ٢٩٨

وأحاديث الأخيار ، وبعض الأحكام الدينية ، والشعر ، ومبادئ الحساب ، وبعض من قواعد اللغة العربية ، هذا إلى جانب تعلم القراءة والكتابة والحط الذي كان له مدرسون مختصون . واستعمل الصبية الألواح في الكتابة .

والظاهر أن مكانة الكتاب في القرون الأولى الهجرية كانت عالية الشأن فهو بداية الطريق إلى تعليم أعلى . قال الإمام الشافعي - رضى الله عنه - « كنت يتيماً في حجر أمي فدفعتني في الكتاب ... فلما ختمت القرآن دخلت المسجد لطلب العلم والتوسع في الثقافة الدينية » .

ويروى أن الحجاج بن يوسف كان معلماً بأحد الكتاتيب يعلم الأطفال ويأجرونه خبزاً ، بينما كان عبد الله بن الحرث يعلم دون أن يأخذ أجراً .

هذا ، وقد أشار القريرزي إلى عدد من الكتاتيب التي كانت ملحقة بالمسجد في مصر في عهد المماليك لتعليم الفقراء واليتامى من الأطفال القرآن الكريم . ويؤخذ من هذا (١) : حرص المسلمين وتشجيعهم نشر التعليم ، كما أن الفقير أو اليتيم لم يكن عقبة في سبيل التعلم . فكلما كان الأغنياء والقادرون يتعلمون كان الفقراء يجدون الفرصة في التعلم وحفظ القرآن وطلب العلم .

وما يذكر بالإجلال والتكريم تسابق بعض المسلمين لفتح الكتاتيب لتعليم الأطفال ابتغاء التقرب إلى الله ونشر التعليم .

ويذكر أن معاملة المعلمين للأطفال اتسمت بالعدالة والمساواة دون تمييز البعض على البعض الآخر ، بل لم توجد ما نعهده اليوم بالمدارس الخاصة أو المميزة لأبناء الأغنياء أو ميسوري الحال . فقد جلس الأطفال متجاورين تظلمهم الرغبة في التعلم . والظاهر أن الحجرة التي كان الأطفال يدرسون بها ضمت أكثر من مستوى تعليمي ، وكانت مهمة المعلم - والحال هكذا - ليست سهلة . وما أشبه هذا - إلى حد - بما يطلق عليه اليوم اسم « المدرسة ذات الصف الواحد أو الفصل الواحد » . وكان هذا سارياً في بعض الكتاتيب وليس في كلها .

ولنا أن نعمل الخيال - حيث المصادر غير كافية - لتصور طرائق التعليم ومعالجة تنوع المستويات . ويغلب الظن أن المعلم درس كما تعلم ، وأن التجربة في التعليم ونجاح محاولة ما وفشل محاولة أخرى أنارت شيئاً من الهداية للمعلم لكيفية التعليم . وشك قليل يساور الكاتب في أن نجاحاً تحقق بالفعل باتباع أساليب تعليمية أنت أكلها ، نعت وازدهرت من الواقع التربوي في الكتابات في العصور الوسطى .

٢ - القصور : وكان الخلفاء والأمراء والأغنياء يتخذون لأولادهم معلمين خاصين يذهبون إلى القصور ويجلس الأولاد إليهم يتلقون منهم قدرأ من الثقافة والمعرفة . وكان الوالد يشترك في تخطيط وتحديد ما يتعلمه ابنه من معلمه الخاص ، وقد أطلق على هذا المعلم اسم « مؤدب » ، وكان بعضهم يقيم في القصور حيث أعد جناح للإقامة حتى يتم لإشرافهم على تربية الولد .

ويذكر أن المتنبى كان يلقي شعره شادياً في قصر سيف الدولة الحمداني . والظاهر أن كرم سيف الدولة ألف حوله قلوب أدباء عصره وعلمائه فهرعوا إليه في حاب حيث اتخذها قصبة . ويذكر أيضاً أن الكباريين من الخلفاء والأمراء اتخذوا من قصورهم مجالس للأدب والعلم ، وعقدوا بها الندوات حيث دارت المناقشات والمسابقات والمناظرات ، ومن هؤلاء المعتضد بالله في بغداد حيث ضم قصره دوراً ومساجن ومقصورات لسكن العلماء ودراساتهم وأجرى عليهم وأجزل . وكذلك فعل خيراً بأهل العلم والحكمة معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وغيرهم كثيرون :

٣ - المسجد : لم يختلف المسلمون عن غيرهم في الباعث على إنشاء المساجد ، فقد أقامها الناس لأغراض دينية ، لهذا استعمروا أماكن العبادة كالكنائس والأديرة والهيكل والمعابد للتدريس ، كما قام رجال الدين بتعليم الأولاد . وهذا ما فعله المسلمون ، فلم يكن المسجد مكاناً للعبادة فحسب ، بل كان محكمة للتقاضي ومكاناً للدراسة ، بل كان أيضاً ميداناً لاجتماع الجيش الباسل ، وداراً لاستقبال السفراء . وقد سمي المسجد « بيت الله » فلا يحتاج

الداخل إلى استثناس ولا إلى استثنان للدخول سراء كان ذلك للدراسة أو للتعبد . ويلوح أن المسلمين قد تأثروا بالعرب قبل الإسلام ، وكان لهؤلاء متمبدهم المقدس وهو (البيت الحرام) حيث أقام فيه عبدة الأصنام أصنامهم على اختلافها . وبعد أن أبعد المسلمون عن مكة وخرج النبي عليه السلام مهاجراً إلى المدينة أقام في « قباء » مسجداً هو أول مسجد في الإسلام ، ثم بنى الرسول عليه السلام إثر دخوله المدينة مسجده بالمربد ، وكان يجلس فيه يعلم أصحابه دينهم وديانهم .

وصار المسلمون يبنون في كل مدينة مسجداً ، وعلت المآذن في مختلف الأمصار ، في المدن والقرى . ولعل أول جامع بني في مصر هو جامع عمرو بن العاص الذي بنى في العام الحادى والثلاثين من الهجرة بأمر من عمر بن الخطاب بعد فتح مصر ، وظل هذا المسجد ينمو حتى أصبح مركزاً للثقافة ومحكمة للقضاء . وكان به أكثر من أربعين حلقة دراسية للتعليم يومها الطلبة للدراسة والبحث ، ومنها حلقة الإمام الشافعى (١) . ثم أسس أحمد بن طولون جامعه بالقطن عام ٢٦٥ هـ ، وجاء هذا الجامع بعد جامع العسكر شمالي القسطنطينية ، وانتقلت صلاة الجمعة من العسكر إلى جامع ابن طولون ، وفي سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) بنى جرهر الصتملى الجامع الأزهر الذى أصبح من الجامعات الأولى في العالم الإسلامى (٢) .

ومن المساجد ذات الشهرة الدائمة « جامع المنصور ببغداد » وقد بناه أبو جعفر المنصور وجده هارون الرشيد وأضاف إليه ودعمه . وقد وفد إلى جامع المنصور خلق غفير من الأساتذة والطلبة ، ولعل من أشهر من جلسوا للقراءة في هذا الجامع الكسائى ، فقد قرأ فيه علوم اللغة :

أما الجامع الأموى بدمشق فهو من عجائب الدنيا ، ويقال إن الوليد

(١) محمد عطية الأبراشى : التربية الإسلامية . ص : ٥ .

(٢) التعليم في الأزهر سوف يأتي فيما بعد في مرض الحديث عن التعليم في مصر

بن عبد الملك أنفق على بنائه خراج المملكة سبع سنوات . وكانت فيه حلقات للتدريس للطلبة ، كما كان للملكية زاوية للتدريس يجتمع فيها طلبة المغاربة ، كما كانت به مدرسة للشافعية . واشتمل أيضاً على عدة زوايا خصصت للطلبة للدرس والنسخ في هدوء .

٤ - حوانيت الوراقين : مع انتشار الورق من منتجات مصر في ربوع الدولة الإسلامية كرت الكتب وتفنن العرب في تجليدها وتجميعها ، وظهرت مكبات وحوانيت للوراقين . على أن هذه المكبات والحوانيت لم يقتصر على بيع الكتب والتجارة ، بل كانت أمكنة يجتمع فيها الأدباء والمتكلمون ... وتتحول مناقشاتهم إلى ندوات ومناظرات ، وغالباً ما كان أصحاب هذه الحوانيت من المهتمين بالأدب والعلم والدين ، ومنهم من تفقهوا فكانوا يجذبون إليهم محبي العلم والمعرفة . ويذكر أن الجاحظ كان يبيت بهذه الحوانيت للقراءة والاطلاع والبحث .

٥ - منازل العلماء : اتخذ رسول الله عليه السلام دراً الأرقم بن أبي الأرقم مكاناً يعلم فيه المسلمين تعاليم ومبادئ الدين الجديد . وبقراءتهم ما نزل من آيات الذكر الحكيم ، كما كان المنزل ملتقى الذين يتخبرون الإسلام ديناً فيأتون إليه ناشدين الإسلام . ثم أقيمت المساجد وأصبحت مكان اللقاء والاجتماع . على أن بيوتاً كثيرة في التاريخ الإسلامي لعبت دور المدارس كمنزل الرئيس ابن سينا حيث كان يجلس إلى طلبته ومحبي علمه الغزير ليلاً . كما كان الإمام الغزالي يستقبل تلاميذه بداره بعد أنه استقال من العمل بنظامية نيسابور .

المدارس

حفلت المساجد بحلقات الدرس والمناقشة كما أسلفت القول ، مما كان يؤدي بعض المصلين الذين تطرق آذانهم أصوات المناقشات العالية الحامية الوطيس . ومع اتساع رقعة العلم كان لابد من تخصيص أمكنة ملائمة يجد فيها المعلمون مجالات أوسع للنقاش والبحث والمجادلة . بل إن المعلمين أنفسهم

الذين شغلوا بالتعليم جل وقهم حاولوا الارتزاق باحتراف حرفة بسيطة .
بلما فشلوا تطلّعوا إلى المدارس عسى أن يكون وجودها ضامناً لهم في جريات
نجوم بحاجاتهم (١) .

وتختلف المدارس عن المساجد . ففي كل مدرسة إيوان وهو يقابل قاعة
لمحاضرات اليوم ، ويلحق بالمدرسة مساكن للطلبة ومرافق أخرى وقاعة للطعام .
ويغلب أن المدارس لم تعرف في عهد الصحابة والتابعين ، ولم تنشأ إلا في
نهاية القرن الرابع الهجري ، وأن أهل نيسابور هم أول من بنوا مدرسة في
الإسلام وسموها المدرسة البيهقية^٢ . والظاهر أنه كان لكل مدرسة أوقاف .
يصرف منها على الأساتذة والطلبة ، والدين هو الغالب على مناهج المدارس .
بل كانت كل مدرسة تدرس على مذهب من المذاهب الأربعة : أبي حنيفة
ومالك والشافعي وابن حنبل . وكانت الظروف السياسية تدعو إلى ذلك .
فقد قامت على أنقاض البويهيين والفاطميين (وهما من أنصار الشيعة) دولتنا
"سلاجقة والأيوبيين وهم من أهل السنة . ولذلك أقام السلاجقة والأيوبيون
مدارس لتقاوم ما غرسه أهل الشيعة من عقائد يرفضها أهل السنة . فأقام
السلاجقة مدارس^٣ بالعراق واقتضى أثرهم الشاهات والأتابك الذين أقاموا
إمارات على أنقاض السلاجقة ، ولما آل الأمر إلى نور الدين زنكي في سوريا
ومصر أنشأ بهما المدارس ، كما اتجه الأيوبيون في مصر إلى عقول الناس لغرس
المذهب السني ؛ فأقاموا عديداً من المدارس .

وأهم المدارس التي ظهرت في التاريخ الإسلامي :

١ - المدرسة النظامية ببغداد : يذكر السبكي أن نظام الملك (ودين
الوزير نظام الملك هو السلطان الحقيقي للدولة الأولى للسلاجقة) أنشأ مدرسة
عظيمة في عديد من البلاد منها ببغداد وبلخ وأصفهان والبصرة والموصل : عني

(١) Khuda Bukhsh : Islamic Civilization, p. 285. في: أحمد شليبي

(المرجع السابق) ص : ٩٧

أن نظامية بغداد أكانت على وأهم المدارس النظامية ، وقد أنشئت عام ٤٥ هـ وقد تم بناؤها في سنتين .

٢ - المدرسة الناصرية بالقاهرة : ولم تنشأ بالقاهرة مدارس نظامية إلا في عهد الأيوبيين . أما المدرسة الناصرية فقد بدأ بناءها السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصوري وأتمها السلطان محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣ هـ . وقد وصفها المقرئى بأنها من أجمل مباني القاهرة وبأنها من أعجب ما عملته أيدي بني آدم

٣ - المدرسة النورية الكبرى : وهي في دمشق ، وتنسب إلى نور الدين محمود زنكى الذى بناها سنة ٥٦٣ هـ على مساحة حوالى ١٥٠٠ متر مربع ؛ وهذه المدرسة مازالت باقية الآن بحى الخياطين بدمشق ، وبابها الحالى هو بابها القديم (١)

المكتبات .

روى المؤرخون عن مكتبات في معظم المساجد والجوامع والمدارس ودور الحكمة ودور العلم لتكون مرجعاً للطلبة والعلماء والنساخ . وإذا أخذ بتقديرات المؤرخين فاننا نعجب للعدد الضخم الذى يسوقه المقرئى عنا خزانة الكتب التى ألحقت بالمدرسة الفاضلية ، فهو يقدر الكتب بها بمائة أن كتاب . ويذكر ياقوت أنه كان في مدينة واحدة من مدن خراسان عشر دف للكتب منظمة وتشتمل إحداها على ١٢,٠٠٠ مجلد .

ولعل هذه الأقوال وغيرها تدل على تقدير المسلمين للكتب وإعجابهم بها واهتمامهم بالمكتبات وإقبالهم عليها وعلى تكوينها . بل وتسبق الخلفاء والأمراء على شراء الكتب ؛ فيقال إن الحكم صاحب الأندلس كان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ، ويرسل إليهم الأموال لشراؤها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه . ويروى عنه أنه عندما سمع أن أبا فرج الأصفهاني كتب كتابه « الأغاني » أرسل إليه ألف دينار ذهباً ليعت إليه بنسخة وصلت الأندلس قبل أن يخرج الأصفهاني في العراقة . وبلغ اهتمام

(١) محمد عطية البراضى : المراجع الاسبق ، ص ٧٣

الناس من غير المثقفين بالكتب أنه روى عن حرص بعض الأندلسيين على اقتناء للكتب بمنزلة ما تضيفه من جمال على المنزل وكمال وإجلال على صاحب الدار .

وقد عني المسلمون بالكتب . وكانت عندهم منها ثلاثة أنواع : مكتبات عامة ، ومكتبات بين العامة والخاصة ، ومكتبات خاصة . أما عن المكتبات العامة فقد كانت في أبنية جميلة ، حيث كانت تستقبل جمهور المطلعين والباحثين وكان بها حجر متعددة تربط بينها أروقة فسيحة . وثبتت الرفوف بجوار الجدران لتوضع عاينها الكتب . وقد خصصت الأروقة للاطلاع وبعض الحجرات للنسخ ، والبعض للاجتماعات . وقد أثبتت هذه المكتبات بأثاث فخم وفرشت أرضها بالبسط والحصر حيث كان يجلس المطلعون . ويرى أن راحة المطلعين والباحثين كانت محل اهتمام أولى الأمر ، فقد أقاموا سناثر على النوافذ والأبواب ، ونظمت الكتب على الرفوف مع كتابة اسم الكتاب ومؤلفه على أطراف الصفحات مجتمعة من أسفل وتجعل رؤس الحروف تجاه جلدة بدء الكتاب . وكان بالمكتبات العامة فهارس منظمة على حسب موضوعات الكتب ، كما كانت تلتصق على جانب كل دولا ب ورقة بها أسماء الكتب التي فيه . وقد سمح بالاستعارة الخارجية ولكن تحت قيود شديدة ، وكثيراً ما كان المستعير يدفع ضماناً ، أما أفاضل الناس والعلماء فقد أعفوا منها .

وكان يعمل بالمكتبات العامة موظفون يرأسهم الخازن ، وهو أمين المكتبة . وكان من أصحاب العلم والمكانة ، ثم المترجمون ، والتساخ ، والمخلدون ، والمناولون وهم الذين يرشدون القراء إلى موضع الكتب على الرفوف ، أو إحضار الكتب لهم من أمكنتها إلى حجرات المطالعة . وقد أطلق على المناولن اسم الخدم لأنهم يخدمون القراء تمييزاً لهم عن القرابين الذين يقومون على تنظيف فراش وأثاث المكتبة :

ومن أهم المكتبات العامة :

١ - خزنة الحكمة أو بيت الحكمة : وقد أسسه هارون الرشيد ببغداد ، ولكن الغموض يكتنفه ، فالمعلومات عنه قليلة ، فمن قائل إنه كان مكتبة فقط . أو مكتبة ومعهداً ومرصداً ، وشك في أن الرشيد أقامه ، وإنما بناه المأمون : ويعد بيت الحكمة أول مكتبة عامة لها شأن كبير في العالم الإسلامي ، حيث كان يجتمع فيه في زمن المأمون صفوة من العلماء والأدباء ، ويحج إليه طالبو العلم والمعرفة . كما أرسل المأمون بعثة إلى القسطنطينية فيها صاحب بيت الحكمة لجلب الكتب اليونانية من طبية وفلسفية . وكلمة خزنة تشير إلى الموضع الذي يخزن فيه الشيء ، فخزانة الكتب عند العباسيين الأوائل أشارت إلى موضع حفظ الكتب . وتسميتها ببيت الحكمة تشير إلى المكان الذي تحفظ فيه الكتب أيضاً كييت المال حيث يحفظ المال . أما تسميتها بالحكمة ففيها إشارة إلى الفلسفة حيث قل عدد الكتب الدينية بها وزاد عدد الكتب التي عني بنقلها من الأمم الأخرى وأكثرها فلسفة أو حكمة .

وفي بيت الحكمة نسخت كتب كثيرة وترجمت مؤلفات من لغات أجنبية ويكفي للدلالة على ازدهار الترجمة أنه كان بهذه المكتبة رئيس للمترجمين ومساعدون له .

وعندما استولى المغول وكبيرهم (هولاكو) على بغداد عام ٦٥٦ هـ ، وأعملوا فيها القتل والحرق والسلب ، ذهبت هذه المكتبة الهائلة وضاعت آثارها

٢ - دار الحكمة بالقاهرة : وقد أمر الحاكم بأمر الله الفاطمي بإنشائها سنة ٣٩٥ هـ ، وأراد لها أن تكون أفضل من بيت الحكمة ببغداد . وقد حملت الكتب إلى دار الحكمة من خزائن القصور ومن مصادر متعددة ، فكانت فيها كتب نفيسة ومخطوطات نادرة في الدين والآداب والعلوم بفروعها المتعددة . كما أمدتها الحاكم بأمر الله بكل مستلزمات النساخين من أقلام ومحابر وورق . وأقيم لها قوام وخدام وفراشون وغيرهم رسموا مخدمتها . وكانت دار الحكمة تزخر دائماً بالفقهاء والقراء والنحاة والمنجمين والأطباء . ويذكر أن الحاكم أجرى عليها من الأرزاق السنية ما حقق حياة هنيئة للخدام والنراشين : كما أمر

بفتح أبوابها لمن يشاء الاستفادة مما فيها من كنوز علمية سواء في بطون الكتب أو من المناقشات والمحاورات والمحاضرات التي استمرت منذ أن فتحت دار الحكمة . وقد وصفها المقرئى (١) قائلاً إنها كانت من عجائب الدنيا ، وإنه لم يكن يبرها في الأمصار الإسلامية دار كتب ، كما أنها حوت مليوناً وسبعمائة ألف كتاب ، وفيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة .

وكم يؤلم أن يذكر المؤرخون أن بعض هذه الكتب وكان الخط فيها محلي بماء الذهب والفضة ذهب عنوة إلى الجند الأتراك مقابل روايتهم المتأخرة زمن المستنصر بالله ، بل إن بعض الكتب اتخذ العبيد والإماء من جلودها نعالاً وأحذية .

واستمرت دار الحكمة في عملها إلى أن هدمها صلاح الدين الأيوبي وأقام مكانها مدرسة للشافعية (٢) :

وهناك مكاتب عامة أخرى مثل المدرسة الحيدرية بالنجف بالعراق ، وسميت بالحيدرية نسبة إلى حيدر وهو إمام علي بن أبي طالب ، وهو الذى مهتف به الشيعة فى مناساتهم الدينية . ولا تزال المكتبة موجودة إلى اليوم ، ويذكر المؤرخون أيضاً من المكتبات العامة مكتبة (ابن سوار) بالبصرة أسسها أحد رجال عضد الدولة ، وكان يؤدى فيها تدريس بحوار الكتب . كما أنشأ سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة لخزانة سابور بالكرخ عام ٣٨٣ هـ ، وكان بها حوالى عشرة آلاف وأربعمائة مجلد ، وكانت مركزاً ثقافياً ممتازاً . هذا إلى جانب مكاتب المدارس وكان أشهرها مكتبة المدرسة النظامية ببغداد .

والنوع الثانى من المكتبات يطلق عليه مكتبات بين العامة والخاصة ، لم يسمح بالدخول فيها لكل الناس ، ولم تكن خاصة ؛ لأن الذين أقاموها لم يقصدوا أن تكون لهم وحدهم . وقد أنشأ هذه المكتبات الخلفاء والملوك

(١) المقرئى ، تقى الدين أحمد بن على : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطوط والآثار .

للجزء الثانى - ص ٢٥٥

(٢) أحمد شافى : المرجع الأسبق . ١٧٩

والأمراء ، لا لب في الاطلاع والتحصيل ولكن تظاهراً أمام الناس . ومن هذه المكتبات مكتبة الناصر لدين الله ومكتبة المعتمد بالله .

والنوع الثالث من المكتبات هو المكتبات الخاصة ، وقد أنشأها العلماء والأدباء لاطلاعهم الخاص . وقد كثر عدد هذه المكتبات . فكان من الصعب أن نجد عالماً أو أديباً لا يقنى في بيته مكتبة تزخر بالكتب .
والنوع الرابع مكتبات المشافى (١) .

فن مآثر الإسلام الكبرى عناية بالمرضى واهتمامه بعلاجهم وإيجاد الأماكن اللازمة لمعالجتهم وتطبيبهم وقد اهتم أوائل الخلفاء بهذه النواحي . فنقرأ في كتب التاريخ أن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك اهتم بالمرضى فعزل لخدمتهم في أماكن خاصة وأوقف عليهم من يهتم بهم ، كذلك عن لكل أعمى قائداً يهديه السبيل إلى غير ذلك من الاخبار ، ومع تقدم الزمان ورقى الحضارة واستجار العمران أنشئت المشافى ، وقد استعمل المسلمون لها الكلمة الفارسية مارستان أو بهارستان وتعني بيت المرضى (٢) ، وقد أنشأ الخلفاء والحكام المشافى في طول البلاد وعرضها ، فقد أوجد عضد الدولة البوسه في القرن الرابع الهجرى مارستاناً في بغداد سمي باسمه فظل فترة طويلة يستقبل المرضى ويهتم بهم ، كذلك أنشأ نور الدين الشهيد في دمشق في القرن السادس الهجرى بهذه المشافى مكتبات حافلة تضم ثمرات العقول لأن المستشفى لم يكن مكاناً للتطبيق والتمرير فحسب ، وإنما كان أيضاً مكاناً لتعليم طلاب الطب الأمراض وطرق معالجتها فكان مكاناً للتدريب العملي ومكاناً للدراسة النظرية ، والمشافى التي عندنا أخبار عن مكتباتها هي البيارستان العقدي فقد ألحقت به مكتبة ضخمة كانت مصدرها أساسياً للطلاب والأساتذة على السواء ، وكذلك كانت الحال في المارستان النورى في دمشق ، ذلك أن نور الدين الذى حكم قسماً من العراق وسوريا ومصر عمر بيارستاناً في دمشق وأطلق عليه اسمه ،

(١) من محمد ماهر حماده : المكتبات في الإسلام : ص ٤٤ - ١٤٧ - ، ١٩٠ - ١٩٧

(٢) كان البيارستان مستشفى جميع الأمراض الجسمية والعقلية للرجال والنساء ويروى

القريرى أن أول من بنى البيارستانات في الإسلام الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨ هـ .

فلما عمر البيارستان جعل أمر الطب فيه إلى الطبيب أبي المجد بن أبي الحكيم المتوفى سنة ٥٧٠ هـ . وكان يعود على المرضى فيه . وكان يعتبر أحوالهم وبين يديه المشارفون والخدام للمرضى ، وكل ما يكتبه للمرضى لا يوتخر عنهم ، فاذا فرغ من ذلك طلع القلعة وافتقد مرضى السلطان وغيرهم وعاد إلى البيارستان وجلس في الإيوان الكبير ، وجميع الإيوان مفروش . ويحضر كتب الأشغال ، وكان نور الدين قد أوقف جملة كثيرة من الكتب الطبية ، وكانت في الخزانين اللتين في صدر الإيوان ، وكان جماعة الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويجلسون بين يديه ، ثم تجرى مباحث طبية وتقرأ التلاميذ ولا يزال معهم في أشغال ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب بعد ذلك كله إلى داره بدمشق .

كذلك يورد المقرئ ذكر مكتبة ملحقة بالمارستان المنصوري في القاهرة في زمانه (١) . وقد بلغت بعض المكتبات الملحقة بالمشافى حداً ضخماً ، فقد ذكر أن عدد الكتب التي وجدت في مستشفى قلاوون في القاهرة حوالى مائة ألف مجلد أخذت أغلبها من دار الحكمة في القاهرة (٢) .

أنواع أخرى من المكتبات :

هناك أنواع أخرى من المكتبات أقل شهرة وأقل أهمية وذبوعاً مما ذكرنا من المكتبات ، منها المكتبات التي كانت تلحق بالتراب والمقابر ، ذلك أن العادة جرت أن يلحق بقبور العظماء والملوك والأغنياء مكان لقراءة القرآن بشكل شبه متصل وأن تلحق به مكتبة صغيرة فيها بعض الكتب الدينية ، وإن كان بعضها قد بلغ حداً من الفخامة لا بأس به . كذلك كان هناك مكتبات في الخانقاه ، وبعضها مهم حتى أننا نجد ياقوت الحموى يذكر مكتبة كبرى

(١) المقرئ . الخطط الفرزبية . ج ٣ . ص ٣٢٢

(٢) فنسك . (محرر) دائرة المعارف الاسلاميه . لندن ، ريل ، ١٩٠٩-١٩٣٨

في مرو في خانقاه هناك (١) . وقد اعتاد بعض الحكام أن ينقلوا معهم بعض الكتب التي يحتاجونها أثناء سفرهم ، وقد ذكرنا سابقاً قصة الصاحب بن عباد وكيف أنه كان يصطحب معه أثناء سفره من الكتب ما حمولته عشرة جمال فلما صدر كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني استغنى عن ذلك اكتفاء بكتاب الأغاني ، وقد اعتاد بعض حكام المغرب الأقصى (مراكش) في العصور المتأخرة أن يصطحب معه مكتبة متنقلة أثناء سفره فقد ورد ذكر مثل هذه المكتبة في كتاب أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله المعافري بن عربي ... يروي المؤلف ... خبرني الشيخ الصالح يوسف الحزام المغربي بالإسكندرية في سنة ستين وسبعمئة قال رأيت تأليف القاضي أبي بكر بن العربي في تفسير القرآن المسمى أنوار الفجر كاملاً في خزانة السلطان الملك العادل أمير المسلمين أبي عنان فارس ابن السلطان أمير المسلمين أبي الحسن علي ابن السلطان أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن يوسف بن عبد الله ، وكان السلطان أبو عنان آنذاك بمدينة مراكش ، وكانت له خزانة كتب يحملها معه في الأسفار وكنت أخدمه مع جماعة في حزم الكتب ورفعها فعددت أسفارها فبلغت عدتها ثمانين مجلداً لم ينقص من الكتاب المذكور شيء (٢) .

نستطيع أن نشبه هذه المكتبات بالمكتبات المتنقلة التي انتشر استعمالها في بلاد الغرب ، مع شيء من التجوز ، إذ أن الأولى خاصة بالملوك والكبراء على حين أن مهمة الثانية خدمة أفراد الشعب البعيدين عن مراكز المكتبات الكبرى والعامّة .

لقد شط بنا القلم قليلاً في هذا الفصل وفي الفصل السابق ولكن شفيعنا في ذلك وفرق المواد وتنوع الموضوعات وتعدد النماذج مما اضطرننا إلى هذا التوسع الذي نرجو أن يجد فيه القارئ فائدة ومنتعة .

(١) باقوت الحموي . معجم للبلد : ٨ . ص ٢٦

(٢) أبو بكر المعافري ، محمد بن عبد الله بن عربي . أحكام القرآن .

القاهر ، الطبعة السادسة ، ١٣٣١ هـ . المندة ص ١ - ب

استعمال المكتبات للبحث والاستفادة من محتوياتها :

لم تكن المكتبات في الإسلام موجودة لمجرد الزينة أو للباهى والتفاخر أو لقطع الوقت وترجية الفراغ أو لإرضاء هواية جمع الكتب ، بل كانت لغاية أسمى من ذلك بكثير ، فقد كانت مكاناً لتنشيف الشعب ككل ومكاناً للبحث والدرس والتأليف والتمحيص بشكل خاص . وأن النشاط الهائل الذي أظهره علماء الإسلام وأدباؤه عائد بالدرجة الأولى إلى حسن استخدامهم المواد التي توفرت لديهم في مكتباتهم ، فالأمون الذكي الطلعة استفاد فائدة كبرى من مطالعته في مكتباته واشتهر بالعلم والذكاء لكثرة ما قرأ وبحث وكذلك الجاحظ العالم الموسوعي الذي جمع فأوعى وألف المؤلفات العظيمة استفاد كل الفائدة من المكتبات ومن دكاكين الوراقين ، وكانت مؤلفاته ثمرة ميته اللبالي الطوال في دكاكين الوراقين بطالع ويدرس ، وإن كتاب « الفهرست » لابن النديم كان ثمرة لاشتغال مؤلفه النشيط بالوراقة والنسخ والأمور المكتبية ، ويستطيع المرء أن يتخيل مقدار الخسارة التي كانت من الممكن أن تلحق بالتراث الإسلامي لو فقد هذا الكتاب ، ذلك أن هذا الكتاب حوى معلومات عن الكتب والمؤلفين والنقل والتعريب ليست موجودة في غيره من الكتب وكل من أتى بعده نقل عنه واعتمد عليه وهو مدين له في هذه الناحية .

هذا وأن فيلسوفنا العظيم وطبيبنا النطاسي ابن سينا مدين بعلمه وكتبه ومؤلفاته إلى مطالعته وحسن استفادته من محتويات مكتبة السلطان نوح بن منصور الساماني التي اطلع عليها وحده وهو في إبان تفتحه، وأوان نضجه ، والتي يصفها بأنها تحوى من الكتب ما لم يصل اسمه إلى كثير من الناس .

كذلك استفاد المؤرخ الكبير ابن مسكويه من كونه خازناً لمكتبتين من أشهر مكتبات عصره وهما مكتبة عضد الدولة البويهى ومكتبة ابن العميد فاستمد مادة كتبه في التاريخ والأخلاق منهما .

حتى الحكام والخلفاء الأذكياء الذين أحبوا الكتب وجمعوها بالألوف واعتنوا بها وأنفقوا عليها قسماً كبيراً من أموالهم أحسنوا الاستفادة من كتبهم ومكتباتهم ، فهذا هو الحكم الثاني خليفة قرطبة ولعله أعلم خليفة في الإسلام يصفه صاحب نفع الطيب ويصف استفادته من كتبه بقوله « وكان ذا غرام بها (بالكتب) فقد أثر ذلك على لذات الملوكة فاستوسع علمه ودق نظره وجمت استفادته . وذكر في مكان آخر « وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان ويكتب نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن .

بل إن ملوك الطوائف في الأندلس كالمظفر بن الأفيطس استفادوا من مجموعاتهم إلى الحد الذي جعلهم مؤلفين حقيقيين ، فقد ألف هذا الملك « الكتاب المظفري » في خمسين مجلداً يشتمل على فنون وعلوم ومغاز وسير ومثل وخبر وجميع ما يختص به علم الأدب . فهو هذا المعنى دائرة معارف أدبية حقيقية .

ولقد استفاد ياقوت الحموي من مكتبات مرو العشر التي ذكرها استفادة جلي ، وهو نفسه اعترف بذلك بقوله « فكنت أرتع فيها واقتبس من فوائدها وأنساني حبا كل بلد وأهاني عن الأهل والولد ، وأكثر فوائد هذا الكتاب : (يقصد معجم البلدان) وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن » .

كذلك أحسن ابن القوطي استخدام المواد التي وجدها تحت تصرفه في مكتبتي الرصد في مراغة والمدرسة المستنصرية في بغداد ، ذلك أنه أمضى شطراً كبيراً جداً من حياته خازناً وأميناً لأكبر مكتبتين علميتين على عهده ، وكان ذا ذكاء مفرط فقراً ما شاء ونقل ما أراد ، وكانت المكتبتان غاصتين بالكتب النفيسة النادرة في جميع المواضيع من تاريخ وسير وألقاب وأنساب وفقه وحديث وأخبار وأدب وشعر ولغة وتصوف وحكمة وطب وما وراء الطبيعة .. فاستطاع ، مع وجود هذه المصادر وفي مثل هذا الجهد العلمي الذي وجد به أن يؤلف عدداً من المؤلفات القيمة .

وأما ابن خلدكان فهو نفسه يعترف بأنه تمكن من تأليف كتابه التيم « وفيات الأعيان » بعد أن امتص المعلومات الموجودة في كتب معينة كان يهدف من زمن بعيد إلى مطالعتها « فلما وصلت إلى القاهرة صادفت فيها كتباً كنت أؤثر الوقوف عليها ، وما كنت أتفرغ لها ؛ فلما صرت أفرغ من حجام ساباط بعد أن كنت أشغل من إذات النحيين كما يقال في هذين المثلين طالعت تلك الكتب وأخذت منها حاجتي ثم قصدت لاتمام هذا الكتاب (كتاب وفيات الأعيان) حتى كمل على هذه الصورة » . (١)

على أنه وجد بعض المؤلفين الذين كانوا يسيئون استعمال المكتبات وكتب الآخرين . فأحمد بن علي الخطيب يتهم بأنه ألف أغلب كتبه ما عدا التاريخ استناداً على أعمال كان غيره قد بدأ بها ولم يتمها فحصلت له وتممها هو ونسها إلى نفسه ، يقول ياقوت « سمعت أبا الحسين بن الطيوري ببغداد يقول : « أكثر كتب الخطيب سوى التاريخ مستفادة من كتب الصوري . كان الصوري بدأ بها ولم يتمها ، وكانت للصوري أخت بصور فمات وخلف عندها إثني عشر عدلاً مخروماً من الكتب فلما خرج الخطيب إلى الشام حصل من كتبه ما صنف به كتبه » (٢) .

المعلمون :

هناك مجموعة من الاتجاهات اتبعتها المسلمون والعرب عامة فيما يختص بالمعلمين ، فقد سار الاعتقاد أن خير العلم ما جاء عن طريق المعلمين والعلماء والاحتكاك بهم ، ولم يعطوا العلم في باطن الكتب نفس الأهمية والتأثير كذلك الذي يخرج من أفواه العلماء والأدباء . كذلك لم يفرق العرب بين المعلم والعالم ، بين العلماء المدرسين والعلماء الذين لم يتخذوا التعليم مهنة لهم ، فيذكر مثلاً أن الجاحظ كان معلماً لجليه وللأجيال التالية مع أنه لم يتخذ التدريس مهنة له . وقد أدرك العرب ضرورة دراسة المدرس أصول مهنته ؛ فقد عقد ابن خلدون فصلاً أبان فيه أن التعليم صناعة تحتاج إلى دراية وتدريب ومعرفة نصريف

(١) ابن خلدكان وفيات الأعيان - ٦ . ص ٢٥٥ - ٢٥٦

(٢) ياقوت الحموي . معجم الأدباء ج ٤ . ص ٢١ - ٢٢

سليم ، فهو يقول (١) : « مما يدل على أن تعلم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه ؛ فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها ، فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم وإلا كان واحداً عند جميعهم .. وملازمة المجالس العلمية ، وكثرة الحفظ ، والعناية بتحصيل العلم ليست جميعها بمنحة ملكة التصرف في العلم وتعليمه .. ومن أهم ما يلزم في العلم فتح اللسان بالمحاورة والمناظرة ، والعمل على تحصيل الملكة التي هي صناعة التعليم .. » .

كما اهتم المسلمون بما بين البيت والمدرسة من علاقات ، فقد جاء في كتاب مؤلفه مجهول هو « كتاب الإرشاد والتعليم » لبعض الرجال الصوفية ... جاء فيه « والطفل صورة عائلته : فكل ما فيها من خير أو شر ، وكل ما سمعه ورآه ينطبع فيه ، ولهذا كان جهد الأمهات من أهم الأمور في تربية الأبناء ، ومن ربي ماله ولم يرب ولده فقد ضيع الولد والثروة ، وتربية الفضائل لا يمكن أن تكتسب في المدارس بل تجب ممارستها مع الطفل من يوم يعي الخطاب ويفهم الكلام ، وأول من يطلب منهم القيام بهذه الوظيفة هم طبعاً الذين يعاشرون الطفل من نشأته معاشرة مستمرة ، يؤثرون عليه بأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم ، ثم إذا أضفنا ما تحتاجه هذه التربية من العناء والصبر ، والعقل والحنو والحببة الخالصة حكمتنا بأنها لا تتم إلا بواسطة من أنتجهم الفطرة الإلهية لهذه المأمورية العالية وهم الوالدان » (٢) .

وكان العلماء المعلمون في صدر الإسلام يؤدون أعمالهم طلباً للثواب من الله فلم تدفع لهم الدولة مرتبات ، وكان من يجد في نفسه الكفاءة والقدرة على تثقيف غيره يجلس في المسجد مختاراً ويأتيه محبو العلم ، وكان هذا المعلم يعلم ما يشاء وفي أي وقت يشاء :

ثم بدأ تدخل الحكومات في التعليم عندما أقامت معاهد خاصة له ،

(١) في فصل « في أن التعلم العلم من جهة الصنم »

(٢) أحمد شابي : المرجع الأسبق - عن كتاب الإرشاد والتنظيم . ص : ٥٤٢ - ٥٤٣ .

وعينت لها معلمين . ويذكر أنه عندما شيد العباسيون بيت الحكمة عينوا فيه علماء للترجمة والإشراف ، وكانوا يدفعون لهم رواتب سخية ، ومن هنا بدأ الإشراف الفعلي للدولة على ما يعلم في المعاهد . وبلغ هذا الإشراف أقصاه عندما بنى الجامع الأزهر وأصبح معهداً تعليمياً لنشر الدعوة الفاطمية والتنديد بخصومهم ولعنهم . أى أن الدولة وضعت منهاج التعليم وأشرفت على تنفيذه إشرافاً كاملاً .

وإذا كان الفاطميون قد دعوا لمذهبهم عن طريق التعليم ؛ فقد شمل أهل السنة على محاربة المذهب الشيعي الذي انتشر على يد البويهيين . وكذلك فعل نور الدين في الشام وصلاح الدين في مصر .

وتختلف المصادر التاريخية في نظرتها للمستوى الاجتماعي للمدرس ، ولكن يلوح أن الاتجاه في صف تقسيم المدرسين إلى ثلاث طوائف : الأولى : معلمو الكتاتيب : وكان بينهم فقهاء وشعراء وخطباء ، ولكن غالبيتهم كانوا جماعة اندسوا إلى مهنة التعليم وه أبعاد ما يكونون عنها ؛ ويروى أن منهم من أمتهن كرامته وحظى بثقافة ضحلة وخلق وضيع حتى قيل في الأمثال « أحمق من معلم كتاب » . وغريب ما يذكره بعض المؤرخين والكتاب مثل ابن حوقل والدينوري والأصفهاني عن الدرك الأسفل الذي انحدر إليه كثير من معلمي الكتاتيب ، ففي باليرمو بجزيرة صقلية لجأ إلى هذه المهنة كثيرون - حيث أعفى المعلمون من الانخراط في الجيش - من الأغبياء وكريهي المنظر والحمقى ومن لا خلق لهم ، ومن عرف عنهم شهادة الزور ، حتى قيل إن قبول شهادة معلمي الكتاتيب كان موضع تردد من القضاة . وقد نرى بعض المبالغة في هذه الأقوال ولكن بعض مؤرخي الغرب يرجعون مهانة مكان معلم الكتاتيب إلى أنهم كانوا في أول الأمر من الموالي والذميين ، كما أن العرب تأثروا بالروايات اليونانية الهزلية التي شخصت المعلم في صورة مضحكة .

الثانية : المؤدبون : وقد نظر إلى تأديب أولاد الخاصة صيباناً كانوا أو

كباراً على أنه عمل عظيم يكسب صاحبه فخراً وإجلالاً ورفعته لشأن المؤدب .
الثالثة : معلموا المساجد والمدارس : وقد سبقت الإشارة إليهم .

خلاصة عن التعليم في مصر بعد الفتح الإسلامي

تم فتح مصر على يد عمرو بن العاص في زمن عمر بن الخطاب عام ٢٠ هـ - ٦٤٠ م ، وكانت الثقافة اليونانية الرومانية منتشرة فيها . وبنى عمر جامعته المعروف باسمه في الفسطاط ، وأصبح هذا الجامع مركزاً للحركة الثقافية في مصر والتي كان محورها الدين وعلومه من تفسير للقرآن الكريم ورواية لقراءاته وكذا الرواية للحديث الشريف . وتولى جماعة من الصحابة والتابعين التعليم في هذا الجامع ، ومن أعظمهم صيناً عبد الله بن عمرو بن العاص . وبدخول كثيرين من قبط مصر الإسلام وإقبالهم على اللغة العربية وعلم الدين نبغ بعضهم فخرجوا إلى الأقطار الإسلامية ثم عادوا يعلمون ويجلسون في المساجد يفيدون الناس بعلمهم .

وبمرور السنين ووفود العلماء إلى مصر ، وخروج طالبي العلم منها ، بدأت فئات تشيع للحنفية وأخرى للمالكية وثالثة للشافعية ، وقامت بين الفئات مناظرات ومحاورات . على أن التعليم بصيغته الدينية لم يتعد في السنين المبكرة الفسطاط والاسكندرية ، ثم انتشر في أوائل القرن الثالث الهجري في قرى مصر . على أن الاسكندرية بتاريخها وبمكتبتها التي تهتم العرب بحرقها ، وبمدرستها الراجحة في الفلسفة ظلت مركزاً للإشعاع في العلوم العقلية ، ولكن على نطاق ضيق . وقد اعتمدت مصر في العلوم العقلية على ما يفيد إليها من إنتاج العراق ، خاصة إبان نهضتها العلمية أيام العباسيين . ثم بدأ الاضمحلال يسرى في أوصال الدولة العباسية حتى انقسمت إلى دويلات صغيرة تنعم بالاستقلال . وبينما كانت بغداد تهبط ، كانت دويلات ترتفع ومنها مصر التي استقل بها الطولونيون ، ثم خلفهم الإخشيدون الذين شجعوا العلماء والشعراء والأدباء . وقد أسس محمد بن طنج الإخشيد دوائه عام ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م ،

ويذكر أنه اشترى عبداً بثمانية عشر ديناراً وكان قبيح الخلق دميماً وسمى

(١٤٤ - تطور الكفر)

كافوراً ، ولكنه تربى في القصر تربية عالية ، وأعجب به الإخشيد حتى عهد إليه بتربية ولديه أبي القاسم أنو جور وأبي الحسن على . وقد آل حكم مصر إلى كافور عام ٣٥٥ هـ - ٩٦٦ م وكنيته « أبو المسك » من قبيل التليح . وفي حكم كافور أغدق على العلماء والأدباء ، وقد نبغ منهم عدد كبير منهم سيويه المصرى . كما كان يعقد الندوات في مجلسه كل ليلة ويجزل العطايا حتى ازدهرت الآداب والعلوم في عهده (١) .

وبعد موت كافور عام ٣٥٧ هـ بدأت مصر تفقد الاستقرار والهدوء ويسودها الاضطراب والفوضى ، كما لم تستطع بغداد أن تعيد النظام والاستقرار إلى مصر لأن الخليفة العباسى نفسه كان أضعف من أن يسوس عاصمة خلافته . ولذلك فقد أعد المعز الخليفة الفاطمى في القيروان - أكبر مدن المغرب - جيشاً قوامه مائة ألف محارب على رأسهم قائده (جوهر الصقلى) ويمم الجيش شرقاً قاصداً مصر ذات المركز الجغرافى والثروة . ووصل جوهر الاسكندرية ودخلها دون حرب بعد أن تعهد بالحفاضة على الأهالى ، ثم سار جنوباً حتى قابل الأشراف والعلماء والقضاة والتجار في الجيزة ، ثم دخل القسطنطينية . وفي سواد الليل من ليلة دخوله القسطنطينية ، وضع بالمكان الذى عسكر به أساس مدينة القاهرة . وامتدت الدولة الفاطمية من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر . ثم صارت مصر مركز الحكم في هذه الدولة الكبيرة بعد أن كتب جوهر للمعز ، وجاء ليدخل القاهرة العاصمة الجديدة عام ٣٦٢ هـ - ٩٧٢ م .

والفاطميون من الشيعة ، وأهل مصر والعباسيون من السنين . ولذلك فقد كان للدعوة الفاطمية بمصر أعظم الأثر في التعليم ، حيث أهتم الخلفاء الفاطميون بنشرها ، وأقاموا المساجد وأجزلوا العطاء للعلماء والمعلمين ، وأنشأوا مجالس الدرس في القصور الفاطمية الزاهرة ، وأنشأ الحاكم بأمر الله دار العلم . ونما الجامع الأزهر ليكون جامعة عالمية يأتيها المسلمون من مشارق

(١) على إبراهيم حن : مصر في العصور الوسطى . ص : ٧٠ - ٧٢ .

الأرض ومغارها (١) .

أما عن التعليم في مصر الفاطمية فيمكن أن ننظر إليه بشيء من التحفظ على أنه نمط للتربية الإسلامية في القرون التالية منذ الحكم الفاطمي في القرن العاشر الميلادي وإلى نهاية العصر العثماني . كما سيأتي بيانه فيما بعد .

ويلخص نظام التعليم ، ومدارسه ، ومناهجه ، ومعلموه في النقاط التالية :
أولاً : الكتابات : فكان الطفل يذهب إلى الكتاب فيما بين الخامسة والسابعة ، ويظل بالكتاب إلى سن الرابعة عشرة إذا كان من أسرة ذات يسر . أما إذا كانت معوزة فيبقى سنتين أو ثلاث سنوات . ويبقى الطفل بالكتاب من شروق الشمس إلى آذان العصر . وكان الأطفال يدرسون بالكتاب القرآن الكريم ، وهو بمثابة أصل التعليم الذي ينبنى عليه ما يحصل من بعض الملكات . « وسبب ذلك أن تعلم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده ، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات ، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ينبنى عليه (٢) » . وإلى جانب حفظ القرآن ، متمسماً إلى أقسام ، كان الطفل يتعلم قليلاً من الحساب واللغة والنحو والشعر .

ويقوم التدريس على الحفظ والتقليد مع مراعاة ظروف كل طفل ، فكان المعلم يشرف على تلاميذه ، ومنهم الذي يكتب في اللوح ، والذي يحفظ والذي يسمع .. وقد تحول التعليم إلى حرفة يرثق منها المعلمون ، بل أصبح صناعة لا بتغاء الرزق اختصت بها طبقة من الناس . على أن المصادر التاريخية . كما أوضحت سابقاً ، تتحدث عن مهانة معلمى الكتابات ، وأخرى تجلّهم وترفعهم . والظاهر أنه كانت هناك مستويات من المعلمين ، بل لقد عرفت لهم ألقاب تختلف باختلاف الدراسة التي يقومون بها . وتبدأ الألقاب على النحو الآتي :

(المعلم) وهو أقل الرتب وأكثرها انتشاراً ، ولم ينل صاحب اللقب مركزاً مرموقاً . ثم (المؤدب) وقد كانت حالته أحسن من المعلم فهو يذهب إلى البيوت والقصور . ثم (المدرس) وكان يعلم العلوم الشرعية وقد سميت

(١) خطاب عطية عل : التعليم في مصر في العصر الفاطمي الاول ، ص ٦١ - ٦٤ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٣٩

مدارس نظام الملك بهذا نسبة للقب . ثم يقوم (المعيد) فيشرح للتلاميذ ويفسر ما ألقاه المدرس ، أما رتبة أو لقب (الشيخ) فإنها قصرت على العلماء احتراماً لهم وتوقيراً . ومن ألقاب العلماء (الفقيه) ، وقد كان يطلق تجاوزاً على فقهاء المكاتب . أما لقب (الأستاذ) فهو فارسي الأصل ، وكان يطلق أولاً على أصحاب المصانع ثم أطلق على من أظهر مهارة في التعليم . ومن ألقاب كبار العلماء (الرحلة) وصاحبه على شهرة بالعلم والتعليم حتى إن الطلبة يرحلون إليه ويتكبدون المشاق للاستفادة من علمه الغزير . أما أعلى درجات السلم العلمي فكانت (الإمام) والإمام في علم مرجع فيه ، وهو ثقة في هذا العلم (١) ويتضح من هذه الألقاب ومن موقف الكتاب والمؤرخين من معلمى الكتاتيب وغيرهم ، أن علم المعلم كان محددًا لدرجته ومكانته ، فلا نظن أن يعهد كبير بابنه لمؤدب لا يكون على علم كاف وثقافة عالية وسمعة طيبة . ويوح كأنه يترسب في التدريس بالكتاتيب أقل المعلمين علماً وثقافة ممن لم يملكوا من التقدم إلى التعليم في غير الكتاتيب . ونظرة الناس لهم أقل من نظرهم إلى المؤدبين والمدرسين مثلاً . كما أن قبول معلمى الكتاتيب الطعام ، خاصة الخبز من التلاميذ ، بل ووضوح حاجاتهم إلى ما يرسله آباء التلاميذ إليهم قد أنزل من مكانتهم الاجتماعية . ومع ذلك فقد كان يطلب منهم أن يكونوا قدوة صالحة ... لا يأتون منكرًا أو فساداً أمام تلاميذهم .

وقد هدف التعليم في الكتاب إلى إعداد الفرد لمرحلة تعليم تالية أو تسلمه بقدر من المعرفة والمهارة اللغوية والحسابية إلى جانب التربية الدينية والتي لها شأن كبير وقتئذ إذا أنهى تعليمه بالكتاب واتجه إلى التجارة مثلاً أو الزراعة على أن الجدير بالذكر أن التربية الخلقية لها شأن عظيم ، فكانت فروض الصلاة والصوم والطاعة مطلوبة من الصبيان في المكاتب . وكثيراً ما لجأ معلمو الكتاتيب إلى العقوبات البدنية الرادعة مما كون عند الأطفال خوفاً من عصيان الأوامر ورغبة في الظهور بمظهر المطيعين أمام معلمهم ، وساكنين لا يأتون

حركة أو صوتاً إلا إذا أمروا بذلك . ولم تكن للرياضة البدنية أو العناية بأمر
الصحة نصيب يذكر .

ثانياً : الدعوة للمذهب الشيعي : وفي سبيل نشر المذهب الشيعي وإحلاله
محل السنة بذل الخلفاء الفاطميون الكثير ، واتجه نظرهم إلى المعلمين والطلبة ؛
فأغدقوا عليهم حتى يدرسوا المذهب الشيعي ويعتقوه . بل إنهم قصروا
الوظائف الكبرى وشبه الكبرى في الدولة على أنصار مذهبهم . واتخذوا من
المساجد أماكن لنشر المذهب ، وخاصة في الجامع الأزهر . ويحدثنا المؤرخون
أن الخلفاء أوقفوا الأوقاف وأنفقوا الأموال على المساجد ، فأمعنوا في زيتها
وزخرفتها بالمصاييح والتناير ، وكان بعضها من الفضة الخالصة . كما نقلوا إلى
بعض المساجد نسخاً من القرآن الكريم مكتوبة بالذهب . وبلغ في الاعتناء
بالمساجد حتى تجذب الناس إليها ويتعلموا فيها . ولكن يؤخذ على الفاطميين
اضطهادهم لمن خالفوا مذهبهم . فيذكر أن رجلاً ضرب بمصر وطوف به في
الشوارع لأنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس . كما أن تصرفات الحاكم
بأمر الله الفاطمي (٣٨٦ هـ - ٤١١ هـ - ٩٩٦ - ١٠٠٢ م) تدعو إلى
الدهشة ، فقد أغدق وبذل على العلماء وبنى المدارس وجعل فيها الفقهاء
وامشايخ ، ثم قتلهم وخرّبها . كما أنه بنى داراً للعلم وأجلس فيها الفقهاء
موالحدين عام ٤٠٠ هـ ، ثم هدمها بعد ثلاث سنوات وقتل من كان بها من
الفقهاء والمحدثين . ومع ذلك فالحق يقال عن اهتمام الفاطميين بالعلوم العقلية
إلى جانب اهتمامهم بالعلوم التقليدية ، وأنهم شجعوا العلماء على الهجاء إلى مصر .
ونبع في حكمهم علماء وأطباء .

ثالثاً : التعليم في الجوامع : وكان لجوامع عمرو وابن طولون والجامع
الأزهر أثر كبير في ازدهار النهضة التعليمية ، ولعب الأزهر دوراً كبيراً في
الدعوة للشيعية ، وكان مركز الإشعاع الديني . وظل الأزهر من سنة الانتهاء
من بناءه (٣٦١ هـ) إلى اليوم يؤدي دوره في الدعوة الإسلامية . وسمى بالأزهر
لأنه أحاطت به القصور الزاهرة ، أو كما يقول البعض لما تنبأ له من ازدهار

ورقى ، ويرجح أنه سمي بالأزهر تيمناً باسم فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم جدة الفاطميين .

وقد رتبت للأساتذة فيه الأرزاق ، وأوقفت عليه الأوقاف . وكان خلفاء الفاطميين يزيدون في عمارته ، حتى وصلت أعمدته ٣٧٥ عموداً النف حولها طلاب العلم ممن جاءوا يستمعون إلى ما يدرس عن مذهب الفاطميين ، وإلى الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات . ووفد إليه طلاب من المشرق والمغرب ، قسموا إلى طوائف ، وكان لكل طائفة رواق يعرف بهم .. وكان أصحاب الرزق الواسع يغدقون على الجامع الأزهر من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاورين ، بل ويحملون إليهم في المواسم والأعياد اللحوم والحبز والحلوى .

وإذا كان الأزهر أبرز الجوامع ، فقد كان هناك أيضاً جامع الحاكم ، وجامع عمرو وابن طولون وغيرها من مراكز العلم والإشعاع الثقافي .

وعرف أن الدراسة بالمساجد تقسم إلى ثلاث مراحل : مرحلة ابتدائية لحفظ القرآن الكريم ودراسة فوق ما درس في الكتاتيب ، ثم مرحلة (ثانوية) تتسع فيها الدراسة على أيدي مدرسين أكثر علماً ، ثم مرحلة (عالية) أو (نهائية) تدرس فيها أمهات الكتب على يد طائفة من الجهابذة . وكان الطالب هو الذي ينقل نفسه من مرحلة إلى أخرى . ولم يكن هناك حد للسن أو البقاء في مرحلة دراسية . وغلبت العلوم الشرعية على الدراسات في المساجد ، ودرست فيها أيضاً العلوم اللسانية من نحو وصرف وبلاغة ، وكذلك الجغرافية والرياضة . والمنطق والفلسفة والمنطق والطب . ولكن الغالب أن الطب كان يدرس بدار العلم على نطاق أوسع أو بالمارستانات أو على أيدي معلمين خاصين .

ويذكر أنه بعد انتهاء الحكم الفاطمي ، اعتقد البعض أن العلوم العقلية تعمل على بلبلة الأفكار وتشويشها وتحمل على الريب في المعتقدات الدينية ،

فأصبحوا ينظرون إلى هذه العلوم العقلية بعين السخط ، وهجرت دراستها في المساجد .

رابعاً : طرق التدريس بالمساجد : منذ أن جلس النبي عليه السلام في المساجد معلماً ، صار التقليد أن يجلس العلماء وحولهم المستمعون ، وهذا هو نظام الحلقات الذي انتشر في ربوع العالم الإسلامي ، فكان العالم يجلس إلى أحد الأعمدة في الجامع متكئاً عليه بظهره ومتجهاً إلى القبلة وحوله الطلبة في حلقة . وكان لكل عالم عامود يعرف به ومن حقه أن يجلس إليه . وكان العالم أو الشيخ يبدأ الدرس بالبسملة والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقرر الدرس بالدقة ثم يختمه بقراءة الفاتحة .

وكانت أساليب التدريس تلتخص في الإملاء والشرح والمناقشة ، فالأستاذ يملئ ما لديه ويشرح ما يصعب على الطلبة فهمه ، ويسمح لهم أثناء الإملاء أو الشرح بالمناقشة فيما يعين لهم (١) . والغالب أنه كانت تخصص ساعات البكور .. والذهن في نشاطه - لدراسة العلوم العقلية كالتفسير والحديث والفقه والنحو والصرف وغيرها . أما بعد الظهر فكان يخصص للعلوم التي تستند إلى العقل . أما المساء فقد جعل للاستذكار والحوار والتأمل . وكان للطالب أن ينتقل من حلقة إلى أخرى حسب ما يسمح نشاطه ، وعلى أساس عدد العلوم التي يرغب في دراستها ، ويرجع البعض أن الدراسة في المسجد كانت تتطلب إثنتي عشرة سنة ، وإن كان التحديد الزمني لا حدود له .

وكان الأستاذ أو الشيخ هو الذي يحدد ويأذن للدارس على يديه بالتدريس أو الرواية أو الإفتاء ، وكان هذا يتم بعد أن يقرأ الطالب على عدة أساتذة عدداً من الكتب ، لكل أستاذ كتاب في فرعه وتخصصه .

ولم يكن الطلبة يدفعون أجوراً نظير تعلمهم في المساجد بل كانت ترتب لهم ولأساتذتهم غالباً أرزاق وأعطية تكفي للإنفاق عليهم في حياتهم الخاصة . وقد سبق الإشارة إلى ما يدره أهل اليسر على هؤلاء الطلبة في المواسم والأعياد

(١) خطاب عطية طلي : المرجع الأنبي ، ص ١٣٤ - ١٣٥

وغيرها ، ولعل هذا الأمن الاقتصادي كان حافزاً للطلاب على التعلم سواء من أهل مصر أو من الأمصار الإسلامية . كما شجع على ذلك مكانة العلماء الذين كانوا يعلمون في الجوامع والمساجد الكبيرة ، حتى قيل إن هؤلاء كانوا يستأذنون الخليفة في القيام بالتدريس ، بل إن الخلفاء أنفسهم كثيراً ما عينوا أساتذة بالجامع الأزهر .

خامساً : دار الحكمة : ويمكن القول إن دار الحكمة نافست الجامع الأزهر وإن لم يكتب لها البقاء كما هو الحال مع الأزهر ، ودار العلم أو دار الحكمة مكتبة وجامعة حوت الكتب القيمة الكثيرة في فروع المعرفة المختلفة وعقدت بها الحلقات الدينية والأدبية والعلمية ، وجلس فيها المنجمون والفلاسفة والأطباء والفقهاء واللسانيون. وهي بذلك قد جمعت بين المكتبات ودور العلم ، وفاقت الأزهر فيما علمته من علوم عقلية ، فقد كان الطلبة بها يتلقون إلى جانب علوم آل البيت وفقه الشيعة الكثير من علوم اللغة والفلك والطب والرياضة والتنجيم والفلسفة والمنطق . ويمكن القول بأن دار الحكمة كانت معهداً لتعليم الطب والمنطق والفلسفة ، وقد جذبت إليها الدارسين من مصر وغيرها بعد أن ذاع صيتها وعرف عنها البحث الحر . وقد قضى صلاح الدين الأيوبي عليها .